أساطير المدينة المقدسة

الكتـــــاب: أساطير المدينة المقدسة/ هشام عبد العزيز
المـــــؤلف: عبد العزيز، هشام
النـــــوع: الأساطير القديمة
تصميم الغلاف: جيهان متولي
إخـــراج داخلي: بثينة عزام
الطبـــــعة: الأولى/ القاهرة ٢٠١٠
عــدد الصفحات: ١٢٠ صفحة
المقـــــاس: ١٤×٢٠
تدمـــــك:
١- الأساطير العربية
٢- الأساطير القديمة

صرح للنشر والتوزيع

المدير العام: عبود مصطفى عبود
كورنيش المعادي بجوار مستشفى السلام الدولي أبراج المهندسين (أ) برج (٢)
الدور العاشر
ت: (٢٥٢٤٠١٦٦)(٢+)
البريد الإليكتروني: darsarh@gmail.com
www.dar-sarh.com
رقـم الإيداع: ٧٣٣٨ /٢٠١٠
الترقيم الدولي: 978-977-6382-11-4
ديوى ٣٩٨,٢

أساطير المدينة المقدسة

هشام عبد العزيز



فكر يصنع حضارة

إهــــــداء

إلــــــى

محمود الحلواني. مسعود شومان. طارق الطاهر. عمرو عبد الهادي. محمد أبو المجد. وائل السمري. سارة علام. عادل العدوي. أحمد موسى. أحمد توفيق. مدحت صفوت. محمود عبد الرازق.

من دون ترتيب.

علـى سبيــل التعليــق

يتصل هذا التعليقُ بأحداثٍ بدأتْ مساءَ الثلاثاء التاسعِ من فبراير (شباط) ٢٠١٠م حينما اتصل بي الصديقُ محمد أبو المجد مديرُ تحرير مجلة الثقافة الجديدة؛ ليخبرَني أن بعض (الأصدقاء) أخبره أن دراسة من الدراسات التي نشرتها مجلةُ الثقافة الجديدة في أحد أعدادها، ليست سوى بحث مأخوذٍ بالنص من أحد المواقع على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت). يقصد المخبرُ دراستي المُعَنْوَنَةَ "أساطير المدينة المقدسة" المنشورةَ في عدد مايو ٢٠٠٩م من المجلة المذكورة، وهي الدراسة التي أُقدِّم لها في هذا الكتاب.

بعد محاولة التعرف على الموقع الذي ينشر دراستي توصلتُ – أخيرًا، وفي ساعة متأخرة من الليلة نفسِها – إلى أن الموقع يعود للدكتور عبد الملك منصور، وهو – لمن لم يعرفه -: وزير الثقافة والسياحة اليمني الأسبق، وكذلك وكيل وزارة الأوقاف قبل ذلك. ويشغل الرجلُ – الآنَ – منصب مندوب اليمن الدائم لدى جامعة الدول العربية، بعد أن شغل منصبَ سفير بلاده لدى تونس. أما

النشاط الأهلي الذي يمارسه الرجلُ منذ مطلع الألفية الحالية، فرئاستُه لمؤسسة (ثقافية) أسسها باسمه، ومقرها القاهرة، وتملك موقعًا على الإنترنت، وعلى هذا الموقع كانت دراستي موجودةً، ولكن مُمْهُورةٌ باسم "الأستاذ الدكتور عبد الملك منصور، سفير اليمن لدى جامعة الدول العربية".

وقتَها تذكرت خريف عام ٢٠٠٨م، حينما اتصل بي الصديق أحمد توفيق، وأخبرني أن هناك مؤسسةً ثقافية كبرى، صاحبها يمني الأصل يعيش في القاهرة، يريد أن تشارك مؤسستُه في المؤتمرات، ويرغب لو يرشح باحثين من خلال المؤسسة لهذه المؤتمرات، وأنّ توفيق رشحني لهذه المؤسسة، وأن الرجل يريد مقابلتي.

كان هذا هو السببَ الذي تعرَّفتُ لأجله على عبد الملك منصور، والتقيتُ الرجلَ في مكتبه في حي (المنيل) مرتين أو ربما ثلاث مرات، في هذه الأثناء كان الرجل يريد أن يقرأ بعضًا مِمَّا نُشر لي، ولما لم تكن عندي نسخٌ من أعمالي المنشورة، طلب أن يقرأ لي شيئًا، فأخبرته أنني انتهيت لتوِّي من دراسة عن أساطير المدينة المقدسة.. قراءة

سـيميوطيقية. فطلـب منـي أن أرسـلها لـه ليقرأهـا، حيـث إن هـذا الموضـوع محلُّ اهـتمام لـه بحكـم عملـه الـسياسي، والعلمـي كـذلك، فأرسـلت لـه الدراسـةَ بنفـسي مـن بريـدي الإلكـتروني إلى بريـده الإلكتروني.

بعد ذلك تكشَّف لي أن الرجل لا يريد أن يرشح باحثين لمؤتمرات ولا يحزنون، وأن الأمرَ لا يعدو طلبًا للمساعدة وقد يصل - أحيانًا - إلى أكثرَ من المساعدة.. كان تعليقي للرجل في آخر لقاءٍ بيننا، أنني يمكن أن أبيع وقتي، ويمكن كذلك أن أبيع جهدي، لكنني - أبدًا - لا أستطيع – حتى لو أردتُ – أن أبيع روحي أو عقلي.

تركت الرجل هذه المرةَ بعد أن أخبرته - بوضوحٍ - أن لا يتصل بي مرة أخرى، كما أخبرت مديرةَ مكتبه بذلك. وبعد أن نزلتُ إلى الشارع تذكرتُ دراستي "أساطير المدينة المقدسة"، فما كان مني إلا أن اتصلت بالصديق أحمد توفيق الذي عرَّفني على هذا الرجل، وأخبرته بما جرى، ورجوته أن يتصل بهذا الرجل ليخبرَه بأن لا يتصل بي مرةً أخرى، ويحذرَه من الاقتراب من الدراسة التي أرسلتها له عبر

الإيميل.. وبالفعل اتصل به أحمد توفيق، وبعد نحو ربع الساعة اتصل بي، وأخبرني أنه فعل ما اتفقنا عليه.

عند ذلك الحد اعتبرتُ الأمرَ انتهى وأنه لا يعدو تجربةً فاشلة في زمن عربي أكثرَ فشلًا.. وما كنت أتصور أن هذا الفشلَ يمكن أن يظهر مرةً أخرى ذاتَ مساء في شتاء ٢٠١٠م، حينما اتصل بي محمد أبو المجد ليخبرني أن بعض (الأصدقاء) اتصل يقول له: إن دراسة من الدراسات التي نشرتْها مجلةُ الثقافة الجديدة في أحد أعدادها، ليست سوى بحثٍ مأخوذٍ بالنص من أحد المواقع على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت).

اتصلتُ - مرة أخرى - بالصديق أحمد توفيق طالبًا منه أن يتصل بالرجل ليخبره أن دراستي منشورةٌ على موقعه، متصوِّرًا أن في الأمر خطأً تِقْنِيًّا، فمستوى العلاقة بيني وبين الرجل كان واضحًا تمامًا، ولا أتصور أن رجلًا في موقع سياسي- كالذي يشغله - يمكن أن يترف بمثل هذه الحماقة، فأخبرني توفيق أنه لم يعُدْ يكلم هذا الرجلَ أو يتصل به منذ عصر ذاك اليوم الذي أخبره فيه أن يبتعد عن طريقي وأن لا

يحاول الاتصالَ بي.. ولكن أحمد توفيق طلب من الصديق الشاب مدحت صفوت أن يتولى هو مهمةَ الاتصال بمكتب عبد الملك منصور فربما كان في الأمر خطأ تقنيًا فينتهي الأمرُ سريعًا دون الدخول في مهاتَرَات وتقاضٍ. وبعد أن اتصل صفوت مدحت عاد ليخبرني أن مديرة مكتب عبد الملك منصور ردتْ عليه بأن الدراسةَ هي للدكتور منصور، ولا علاقة لهشام عبد العزيز بها.. ولَمَّا أخبرها مدحت أنني سأقاضيه قالت - ببساطة العارف بمستوى الفشل العام -: لو تكلم هشام وتكلم الدكتور منصور، تُرى أيهما سيصدقه الناس وأيهما سيكذبونه؟!

بعد أن أخبرني مدحت بنحو الساعة اتصلتْ بي الصحفية (سارة علام) من موقع جريدة "اليوم السابع" الإلكترونية لتعرف رأيي في الموضوع، فأخبرتها أنني لم يعد أمامي سوى اللجوء إلى القضاء، وأن الرجل لم يترك لي سوى أن أتهمه بسرقة بحثي، فنَشَرَت اليومُ السابع في اليوم التالي، خبرًا بعنوان: "باحث مصري يتهم دبلوماسيًّا يمنيًّا بسرقة بحثه". جاء في هذا الخبر ما نصه:

"فجَّر الباحث هشام عبد العزيز مفاجأةً من العيار الثقيل، واتهم - في تصريحات خاصة لليوم السابع - د.عبد الملك منصور وزيرَ الثقافة والسياحة اليمنى السابق، ورئيسَ مؤسسة المنصور الثقافية للحوار بين الحضارات، ومندوبَ اليمن لدى جامعة الدول العربية، بسرقة بحث علمي يحمل اسم "أساطير المدينة المقدسة" يتعلق بالتراث في القدس الشريف، ووضعه على الموقع الإلكتروني للمؤسسة بعد أن كتب عليه اسمه.

وكان عبد العزيز قد نشر البحث بمجلة "الثقافة الجديدة" في عددها الصادر في مايو ٢٠٠٩م، بينما نشر منصور البحث نفسه على موقعه الإلكتروني في نوفمبر ٢٠٠٩م.

وأكّد عبد العزيز أنه الْتَقَى بمنصور أكثر من مرة في القاهرة، وساعده فيما يتعلق بالحصول على بعض المراجع والأبحاث، وطلب منه منصور - أيضًا - أن يتعاون مع المؤسسة فيما يخص البحثَ العلمي، ومن ثَمَّ تمت دعوتُه للندوات والمؤتمرات التي تعقدها، وأشار

عبد العزيز إلى أنه أرسل البحث لمنصور عبر الإيميل، مؤكِّدًا أنه لم يكن يتخيل أن يقوم منصور بسرقته ونسبته إلى نفسه.

وأضاف: ومنذ أيام هاتفنى محمد أبو المجد مدير تحرير مجلة الثقافة الجديدة التي نشرت بها البحث، وأخبرني بواقعة السرقة، فما كان منى إلا أن اتصلت بالمنظمة التي نفت أيَّة علاقة لي بالبحث، ونسبَتْه إلى منصور، وبذلك قطعت الطريقَ على الحلّ الوُدّي، واضطرتني للجوء إلى القضاء.

وأوضح عبد العزيز، أنه بدأ - فعلًا - في إجراءات التقاضي، وسيرسل لمنصور بلاغًا على يد محضر يتهمه فيه بواقعة السرقة، مؤكدًا على وجود عشرات الأدلّة القانونية التي تثبت أحقيتَه في البحث، منها: مجلة الثقافة الجديدة التي أرسل لها البحث من يناير الماضي إبَّان الاحتفالِ بالقدس عاصمةً للثقافة العربية، بالإضافة إلى العديد من الأصدقاء الذين أرسل عبد العزيز إليهم البحثَ بالإيميل".

وبدأت - بالفعل - أستَعِدُ للدخول في حالات التقاضي، لكن اليوم كان يومَ الخميس ١١ فبراير، فكان التصورُ أن أنتظر حتى مطلعِ

الأسبوع الجديد، وفي يوم الجمعة بعد الظهر أخبرني بعض الأصدقاء أن الدراسة لم تعُد موجودةً على الموقع، فظننت أن الأمر انتهى وأن الرجل تراجع، أو أن مديرة مكتبه لم تكن تعلم، أو أيَّ شيء آخر..

ونظرت إلى هذا التطور بأنه نتيجةُ ما نُشِر في اليوم السابع، وهو ما توازى مع رؤية القائمين على الموقع، حيث نُشر في اليوم نفسِه، تحت عنوان: "الدبلوماسي اليمنى يحذف الدراسة المتهَم بسرقتها"، ما نصُّه:

" كأوّل ردّ فعل لما نشره "اليومُ السابع" الخميسَ الماضي، حذف الدبلوماسي اليمنى الدكتورُ "عبد الملك منصور" مندوبُ اليمن لدى جامعة الدول العربية ووزيرُ الثقافة والسياحة الأسبقُ بحثَ "أساطير المدينة المقدّسة" من على موقعه الإلكتروني نهائيًّا، بعد أن اتهمه الباحث المصري "هشام عبد العزيز" بسرقته ووضعِه على الموقع الإلكتروني لمؤسسة "منصور" للحوار بين الحضارات بعد أن كتب عليه اسمَه، ونَسَبَه إلى نفسه.

وكان عبد العزيز قد نشر البحث بمجلة الثقافة الجديدة في عددها الصادرِ في مايو ٢٠٠٩م، ونشر منصورٌ البحث نفسَه على موقعه الإلكتروني في نوفمبر ٢٠٠٩م.

الجدير بالذكر أن (منصور) يَشغل منصبَ مندوب اليمن لدى جامعة الدول العربية ورئيس مؤسسة منصور للحوار بين الحضارات، كما تَقَلَّد مناصبَ عدة؛ من بينها: وزير الثقافة والسياحة، ونائبُ وزير الأوقاف".

ونشر "اليوم السابع" صورةً لموقع عبد الملك منصور قبل أن يحذف الدراسة، وصورة أخرى بعد الحذف.

بعد ذلك بنحوِ الساعة اتصل بي من اليوم السابع الصحفيُّ المحترم (وائل السِّمري)، ليخبرني أن الموقع وَرَدتْه رسالةٌ من الروائية (هويدا صالح) أمسِ، تتهمني فيها – صراحةً – بأنني أنا سارق البحث، وأنه على الرغم من أن هذه الرسالة وردت لليوم السابع قبل أن يحذف منصور دراستي من على موقعه، فإنه – (السمري) – لا

يملك إلا أن ينشر مقالةَ (هويدا صالح)، وكانت بعنوان: "امسك حرامي".

أشارت فيها (صالح) إلى أن "السرقات الأدبية أصبحت أمرًا شائعًا، ورغم أنها ظاهرة ليست جديدةً على ثقافتنا العربية فقديمًا عَرَفها النقادُ بظاهرة الانتحال، إلا أن الإنترنت وسهولةَ الحصول على النصوص جعلها سهلةً وشائعة"، كما أشارت إلى أن "هذا الفعل دليل واضح ليس على العجز والنضوب فحسبُ، بل يُعَدُّ فعلًا مشينًا لا يمكن السكوت عنه، فهو يختلف - حتمًا - عن الاقتباس والتناصّ الذي حددته الناقدةُ الفرنسية (جوليا كريستيفا)، كما يختلف عن التأثّر بأسلوب كاتبٍ ما، بل هو سرقة النص بمُجمَله؛ أسلوبًا وفكرةً ولغةً".

مشيرةً بشكل تنظيري إلى أنه "قد يتأثّر كاتبٌ ما بفكر أو بتيمة لدى كاتب آخر، وهذا ربما يُسمَح به باعتبار أن المشتركات الإنسانية واحدة، والهمومَ واحدة، بالطبع نحن لا نسعى إلى إجازة التأثير والتأثر بقدر ما نقول إن هذه الحالة تصف صاحبَها بأنه غير أصيل،

وأن في كتاباته صدًى لكتاباتِ الآخرين، لكن أن يأتي كاتبٌ ما ليأخذ نصًّا كاملًا بتفصيلاته، بأدوات ترقيمه بعنوانه، يأخذه هكذا دون - حتى - أن يُجهِد نفسه في تغيير العنوان مثلًا أو يغيِّر في هيكلة النص، فهي السرقة بذاتها، وهي ما نسميها "سرقات أدبية"، وهي - إن دلتْ على شيء - تدل على العجز وفساد الأخلاق".

وتتابع (صالح) قائلةً: "وأتصور أن هذه الظاهرة لن تتوقف طالما ليس هناك رادع قانوني عن طريق تفعيل قانون حقوقِ الملكية الفكرية، وهذا المناخ الفاسد يسمح لأنصاف المبدعين وأنصاف المثقفين أن يتصدروا المنابرَ الإعلامية.. وهذه الواقعة هي التي قصدتُها حيث كنت بصدد البحث عن خبر يخص روايةَ: "ملاك الفرصة الأخيرة" للروائي (سعيد نوح)، فأدخلني البحثُ عن طريق "جوجل" إلى رابط موقع لمؤسسة المنصور الثقافية، فتعجبتُ من علاقة الرواية بمؤسسة ثقافية، لكنني تتبعت الرابطَ حتى وصلتُ إلى دراسة مطوَّلة عبارة عن ثمانية وعشرين صفحة، وورد للأستاذ د.عبد الملك المنصوري صاحبِ المؤسسة المذكورة.. الدراسة محفوظة على

الموقع باسمه ومنسَّقة على هيئة كتاب بعنوان: أساطير المدينة المقدسة.. ولما قرأتُ الدراسة اكتشفتُ أنني قرأتها منذ شهور بتفاصيلها، بسكناتها وفصلاتها، بعنوانها في مجلة الثقافة الجديدة المصرية التي تصدُرُ عن الهيئة العامة لقصور الثقافة في العدد ٢٢٤ لشهر مايو عام ٢٠٠٩م، في الصفحات من ١٤ حتى ٢٤ من المجلة، والدراسة التي قرأتها قبلُ، وأُعجِبت بالتحليل والتفكيك والقدرة على إيجاد العلاقات الفكرية، كانت للباحث هشام عبد العزيز، وأُسقط في يدي، تُرى من الذي سرق مَن؟ هل سرق الباحث هشام عبد العزيز دراستَه من موقع الدكتور عبد الملك المنصوري، أم سرق الدكتورُ عبد الملك الدراسةَ من هشام عبد العزيز؟! وبقليلٍ من إعمال الفكر والتحليل أميل إلى أن يكون هشام عبد العزيز هو الذي سرَق دراستَه من الدكتور؛ للأسباب التالية التي قد أكون مخطئة بشأنها:

أوّلًا:- تاريخ الدكتور المنصوري في البحث ونوعية البحث في الميثولوجيا والتاريخ والديانات يؤهله، لأن يكتب دراسةً بهذا الوعي.

ثانيًا:- في الدراسة ورد ذكرُ عبارةٍ في التصدير تقول: (أقول لا يحتاج كاتبٌ عربيٌّ إلى سبب يصدِّره دافعًا للكتابة عن القدس، غيرَ أن هذه الدراسة - تحديدًا - وقف وراءها سببان:

الأول: المحاولات المتكررة من جانب اليهود في الآونة الأخيرة للحفر تحت المسجد الأقصى بغرض الإضرار بالمبنى.

الثاني: رواية قرأتها مؤخَّرًا صدرت في القاهرة).

وجملة "رواية صدرت في القاهرة" لا يكتبها كاتبٌ مصري حين يكتب عن كاتب مصري، ولكنها تُكتَب حين يكون الكاتب الأول خارجَ القاهرة.

السبب الثالث - الذي يجعلني أرجح أن يكون هشام هو من أخذ الدراسة ونشرها في الثقافة الجديدة-: أن مجلة الثقافة الجديدة ليس لها موقع على الإنترنت، في حين أن عبد الملك المنصوري له موقع على الإنترنت، مما يُتيح للأوّل الوصولَ إلى الدراسة ولا يتيح للثاني المثلَ.

وإن صَدَقَتْ هذه الفرضيةُ فهذا يطرح سؤالًا خطيرًا (كذا) نستكمل به المقالَ الذي نُشِر سابقًا عن ملايين وزارة الثقافة المهدورة

(كذا)، ويجعلنا نعيد طرح التساؤل، كيف لمجلة تصدر عن وزارة الثقافة، وتُنْفَق عليها أموالُ دافعي الضرائب أن تنشر أعمالًا ودراسات غير أصيلة ومنقولةً عبر تقنية (الكوبي باست) من الإنترنت؟!. ومع ذلك - حتى لا أتسرّع في إصدار حُكمٍ مسبق - ها أنا أضع رابطَ الدراسة من الموقع المذكور، وأترك للقارئ الاطلاعَ على الأمر والمقارنة، كما أترك للباحث هشام عبد العزيز أن يدخل للرد على هذا المقال، وتبرئةِ نفسه - إن كان بريئًا، فربما كانت كل فرضياتي السابقة خاطئةً، ويكون الدكتور عبد الملك المنصوري هو الذي حصل على المجلّة بطريقةٍ ما، وكتب الدراسة التي نشرت فيها ونشرها باسمه على موقعه في الإنترنت".

حتى هذه اللحظةِ كان الأمر برُمَّته بالنسبة لي عاديًا، دبلوماسي يعمل لديه فريقٌ كبير العدد – بما أن لديه موقعًا على الإنترنت -- أخطأ هذا الفريقُ - بقصد أو من دونه. أمَا وقد دخل على الخط خطوطٌ أخرى كالتي سأفصِّل القول فيها لاحقًا، فقد مثّل الأمر بالنسبة لي أهميةً خاصة، كما سأوضح.

وقتَها أرسلت ردًّا سريعًا لـ"اليوم السابع" تضمَّن ملاحظاتٍ سريعةً على التحليل الذي عرضته (هويدا صالح)، أذكر أن فيه من الحذر ومحاولة تلمُّس ملامحِ ما يحدث، بقدر ما فيه من المحبة لبعض الصِّحاب، والأدب تجاه كل ما يتصل بهم سواء من قريب أو من بعيد. لكن في كل الأحوال لم أكن - لاعتباراتٍ كثيرةٍ - وقتَها مستعدًّا لبسط كل ملاحظاتي سواء فيما يتصل بالموضوع بشكل عامٍّ أو بمقال هويدا صالح بشكلٍ خاص. لكنني لا أظن أنني أستطيع التنازل عن بسط كل ملاحظاتي الآن سواء منها ما هو سياسي أو ثقافي، أو ما يتصل منها - وهو أقلُّها أهمية - بالرد على الملاحظات الطيبة التي ساقتها (صالح) في جريدة اليوم السابع.

أوَّلًا: طرح ما حدث مفارقةً عجيبة في ذهني بين النخب العربية والنخبة الإسرائيلية، بما أن موضوعَ الدراسة عن القدس، حيث يمكننا - بشيء من التبسيط غير المُخلّ - أن نعتبر إسرائيلَ صناعةَ كاتب، إنها الدولة/ الفكرة التي قفزت في ذهن الصحفي اليهودي المجري النمساوي مؤسس الصهيونية السياسية المعاصرة

ثيودورهرتزل، (١٨٦٠ – ١٩٠٤) أو بَلْوَرَ فيها أحلامَ غيره، وبعد ما يزيد – قليلًا – على نصف قرن كانت الفكرة مزروعةً زرعًا في واقع أعلن عن تفسخه السياسي والاجتماعي قبل ذلك بثلاثة قرون.

أما هنا في المجتمع العربي فإن النُّخبة – ولا أَعنيها كلَّها، وأرجو أن لا يربط بشكلٍ حرفي بين ما أقوله وما حدث – فإن النُّخَبَ العربيّة لا تفلح – للأسف – في أكثرَ من خداع الحاكم، والمتاجرة – أو قُل: السمسرة – في المحكوم، فارقٌ شاسعٌ بين نُخبةٍ تَصْنَع من لا شيء دولةً ودولةً مرهوبة الجانب، ونخبٍ ضيعت أمةً وأمةً قديمة تمتلك كلَّ مقومات الحياة.

ثانيًا: قد يُخْفِق كاتب ما في إثبات حقه في بحث من أبحاثه على المستوى القانوني – أقول: قد. فربما يكون للقانونيين رأيٌ آخرُ – ولكن إثبات شرعية نسبِ البحث لصاحبه أمرٌ مفروغ منه في ظني، فالبحث العلمي – خاصةً في العلوم الإنسانية – ليس معادلاتٍ رياضيةً، ولكنه من دمٍ ولحم الباحث يَحمِل، وعلى أعصابه يغتذي.. ولذا فلم يكن صعبًا عليّ أن أثبت – ببساطة – أن البحث بحثي، وهو ما سأفعله

حالًا، ليس لإثبات أن الدراسة تعود لي، فالأمر انتهى، ولكن بسْط هذا الأمر يحمل دلالاتٍ علميةً تتصل بموضوع البحث وبمشروعي الذي أحاول التأسيسَ له بشكل عام.

١- مصادر ومراجع الدراسة كلها دارت في أبحاثٍ أخرى لي كلها أو بعضها، في حين أن كثيرًا منها لم يرد له ذكرٌ في أيٍّ من أعمال الدكتور منصور التي استطعت الاطِّلاعَ عليها على الأقل. كما أن ضمن مصادر الدراسة نسخةً خطية لقصة النبي يوسف، وهي نسخة خطيّة أعمل عليها في مشروعٍ كبيرٍ منذ فترة هو مشروع "قصص الأنبياء كما حكاها الناسُ"، ومعلوم أن الاطلاع على مخطوطات في دار الكتب المصرية له أصولُه، وهي الأصول التي تكشف وحدها أن هذا المصدر - تحديدًا - اطَّلع عليه في تاريخٍ محدّدٍ باحثٌ اسمه هشام عبد العزيز.

٢- نشر كاتب هذه السطور في المجلة نفسِها التي نَشرت دراسة أساطير المدينة المقدسة، وأعني: مجلة الثقافة الجديدة، نشر حلقات من مشروع كبير سالفِ الذكر، وهو قصص الأنبياء كما حكاها الناس، ولأن هذا المشروع يتماسُّ في بعض جوانبه مع دراسة أساطير المدينة

المقدسة، فقد كان طبيعيًّا أن تكون هناك مصادرُ ومراجع مشتركة بين الاثنين، بل وأن توجد جمل مشتركة بالنص أحيانًا وإن اختلف السياق الحامِل لهذه الجمل هنا أو هناك؛ ولذا فإن ادعاء المتابعة الزائفَ الذي ادّعاه بعضُ (الأصدقاء) من المثقفين، إنْ هو إلا ادعاءٌ كاذب، فلو أن أحدًا يتابع - ولو قليلًا - لاكتشف وحده أن اللغة في مشروعين منشورين بعضهما في أعقاب بعض تكاد تكون واحدةً.

٣- ورد في الدراسة فِقرتان عُرِضا سريعًا لمساجلة أدبية بين الروائي الإسرائيلي ديفيد جروسمان، والشاعر الفلسطيني المقيم في الكويت محمد الأسعد، تعود وقائعُ هذا السِّجال إلى عام ١٩٩٦م، أما علاقتي أنا به فتعود لعام ٢٠٠٠م، وآخر علاقة لي بهذا الأمر قبل هذه الدراسة كانت في النصف الثاني من عام ٢٠٠٨م، عندما كتبت مقالةً كبيرة في جريدة (القبس) الكويتية.. وقبل أن أورد تفاصيل هذه المُسَاجَلة - كما نشرتها في جريدة القبس الكويتية، يَجدُر أن أورد الفقرتين اللتين أشرتُ فيهما إلى هذه المُسَاجَلة، حيث قلت هنا في هذه الدراسة: "ولا يتورَّعون من استخدام أيَّة وسيلة يرونها من أجل الاستيلاء النهائي

على هذه الأرض التي يقولون – وهو الشيء الوحيد الذي صدقوا فيه –: إنها أرض مقدسة، أقول لا يتورعون في سبيل السيطرة عليها من استخدام أية وسيلة حتى الحبِّ المهمُّ ألا يتركوا لنا أرضنا، لا تتعجبْ نعم قد يستخدمون الحب، ولا أنسى هنا مقالة قرأتها للكاتب الإسرائيلي جروسمان، كانت عبارةً عن رسالة بعث بها للكاتب الفلسطيني محمد الأسعد، عنوان المقالة/ الرسالة: "انظر تحت كلمة حب"، وفيها يتحدث جروسمان عن ضرورة السلام وألا يقوم الفلسطينيون بما أسماه: العمليات الانتحارية؛ لأن ابنه لا يستطيع الخروج إلى الشارع للّعب خوفًا من هذه العمليات، وقد ردّ عليه الكاتب الفلسطيني برسالة، عنوانها: "السيد جروسمان انظر تحت كلمة عدالة"؛ شارحًا فيها كيف أنه – جروسمان – أكثر حظًا منه؛ لأنه يجلس مع ابنه ويحاول إزالة الخوف الذي يعتريه كل يوم، أما هو – الأسعد – فهو لا يرى ولده منذ سنوات، كما أن ابنه وزوجته في بلدٍ آخرَ غيرِ الذي يعيش فيه، فقبل أن ننظر إلى كلمة حب، من الأجدَرِ بنا أن ننظر إلى كلمة عدالة أوَّلًا.. وفي ظنّي أن جروسمان لم يكن يبعث

بالرسالة حقًّا إلى كاتبنا العربي، فقد كان يستخدم اسمَه فحسبُ، ولكنه في الحقيقة كان يبعث بها إلى العالم أجمعَ، عبْر محمد الأسعد، محاوَلةً منه لترسيخ أسطورتهم العصرية التي يروِّجون لها منذ قرن تقريبًا، ألا وهي: أنهم شعب يريد السلام، وأن العرب والفلسطينيين لا يريدون غيرَ الحرب والدمار، هم يطلبون الحب، فيما نطلب نحن الحربَ، تصوَّرْ!".

أما تفاصيل هذا السِّجال فقد بسطتُها في مقالة بعنوان: قراءة في رواية إسرائيلية.. بعد أن ظل لسنوات ينظر تحت كلمة «حب».. غروسمان ينظر - أخيرًا - تحت كلمة «عدالة».

وكان نص المقالة:

"ما زال الأدبُ الإسرائيلي شبهَ مغلق أمام الدراسات العربية سواء على المستوى النقدي أو على المستوى السياسي، تحت تأثير دعوات مثل عدم التطبيع الثقافي مع العدو الصهيوني، وهو الرأي الذي شاهدنا وتابعنا أبعادَه في العام الجاري، إبَّان أزمة وزير الثقافة المصري مع مجموعة من أعضاء البرلمان حول وجود كتب إسرائيلية في المكتبات المصرية، وهي الأزمة التي اتصلت في بعض أطرافها بترشُّح الوزير المصري لمنصب مدير عام منظمة اليونسكو، وفي جانب آخرَ اتصلت بالتطبيع الثقافي مع الإسرائيليين.

هذه القضية (كيف يمكننا التعرفُ على الآخر/ العدو، وتلمُّسُ ملامحه الثقافية)، ليست قضيةً عربية فحسبُ، ولكنها - أيضًا - قضيةٌ إسرائيلية نطالع شرَرَها من وقتٍ لآخرَ.. وكانت آخر أوراق هذه القضية روايةٌ إسرائيلية بعنوان «امرأة تهرب من نُذُر الشر» للكاتب الإسرائيلي ديفيد غروسمان. وقد فتحت مناقشةُ هذه الرواية وتداعياتُ ظهورها منذ أبريل الماضي وحتى الآن ملفًّا مُهمًّا حول رؤية الكُتَّاب الإسرائيليين للقضية الفلسطينية وطبيعةِ نضالِهم ضد

الإسرائيليين من وجهة نظر هؤلاء الكتاب، وهو ما حاولنا رصْدَه في مجموعةٍ من المشاهد.. نبدؤها من النهاية؛ وأعني إصدارَ هذه الرواية موضوعِ النقاش.

المشهد الأول: تسيفي برئيل المتخصصُ في الشؤون العربية بصحيفة هآرتس الإسرائيلية قرر أخيرًا - بحسم شديد - أن إسرائيل «حققت نصرًا ساحقًا على المصريين في حرب أكتوبر ١٩٧٣م»، مستغربًا الحالةَ النفسية المحبطة في إسرائيل تُجاه احتفال المصريين والسوريين بنتائج الحرب، ملقيًا باللوم على مجموعة من الأدباء الإسرائيليين المحبَطين من أمثال الروائي ديفيد غروسمان، وصفهم تسيفي برئيل بأنهم يعانون من نقص الفهم التاريخي والقدرة على المقارنة.. ورغم ما اعتبره برئيل انتصارًا إسرائيليًّا في هذه الحرب، فإنه يرى أن الوضع النفسي للمجتمع الإسرائيلي منذ ذلك الحينِ وحتى اليومِ يعتريه الكثيرُ من الاستغراب والتشكك بعد أن تسببت الحربُ في تآكل شرعية المشروع الصهيوني لدى قطاعات كبيرة من الإسرائيليين.

جاء مقالُ تسيفي برئيل - وهو بيتُ القصيد - ردًّا على مجموعة الأفكار التي حملتها رواية «امرأة تهرب من نُذُر الشر» للروائي الإسرائيلي ديفيد غروسمان، حيث أعرب برئيل عن استغرابه الشديد من الآثار النفسية التي تركتها الحربُ على أبطال الرواية، مشيرًا إلى أنه ومنذ أكتوبر ١٩٧٣م، يواصل الإسرائيليون عمليةَ جلْد الذّات.. فما هو موضوع هذه الرواية المثيرة؟

المشهد الثاني: تدور رواية «امرأة تهرب من نُذُر الشر» حول «ابرام» وهو رجل مصاب بصدمة الحرب.. التقت به أمٌّ إسرائيلية تُدْعَى «اوراه» في مستشفى بالقدس بعد أن أصيب أثناء مشاركته في حرب عام ١٩٦٧م، ثم وقع في أسر المصريين في حرب ١٩٧٣م، وعاد من الأسر مُصابًا جسديًّا ونفسيًّا.. فحاولت بطلةُ الرواية «اوراه»مساعدتَه.. تزوجا وأنجبا عوفير الذي تجنَّد في الجيش، وذهب في عملية عسكرية في منطقة الجليل، حينها أدركت «اوراه» أنها في انتظار خبر وفاة ابنها في أي لحظة، فحاولت الهروبَ من أحاسيس الخوف والقلق على ابنها عن طريق الخروج في نزهة طويلة في كل أنحاء إسرائيل، حيث إنها لم تتمكن من التخلص من مشاعر الخوف

والقلق واليأس نتيجةَ الحرب، فلم تعد تتحمل تخيُّلَ شكلِ أشخاص يرتدون الملابس العسكرية وهم يَطْرُقون على أبوابها ويخبرونها بمقتل ابنها، ولذلك فإن رحلاتِها الطويلةَ هي بمنزلة هروب من نُذُر الأخبار السيئة.

من ناحيته، يقول ديفيد غروسمان: إن شخصيات روايته واقعيةٌ وموجودة بشكل بارز في المجتمع الإسرائيلي، إذ يوجد الكثير ممن يعانون نفسيًّا من آثار الحرب في أكتوبر ١٩٧٣م، لقد شعر بالتوحُّد مع شخصيات الرواية، وعايشهم لحظةً بلحظة طوالَ خمس سنوات منذ مايو ٢٠٠٣م وحتى أبريل ٢٠٠٨م وقت كتابة الرواية.

المعروف أن غروسمان - (مواليد القدس ١٩٥٤م) - من الأدباء الإسرائيليين الذين ينتمون إلى الجيل المعاصر، الذي يملك قدرةً على الكتابة المركبة التي تعكس الحياةَ الإسرائيلية المعاصرةَ.. وقد درس الفلسفةَ في الجامعة العبرية بالقدس، واهتَم في كتاباته بالتعاطي مع موضوع الاحتلال الإسرائيلي والتحكم في الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة.. ومن أشهر مؤلفاته كتاب «الرياح الصفراء» أو «الزمن الأصفر» (نشر عام ١٩٨٧م) الذي عالج فيه الكراهيةَ بين

الفلسطينيين والإسرائيليين، كما نشر بعد ذلك «الحاضرون الغائبون» و«انظر تحت كلمة حب».

المشهد الثالث: حفل توزيع جوائز إسرائيلية في تل أبيب، رئيس الوزراء الإسرائيلي المستقيل (ايهود أولمرت) يقف على المنصة لمصافحة الفائزين بالجوائز.. يُنادَى على اسم الروائي ديفيد غروسمان.. يصعد على الخشبة، ويرفض مصافحة أولمرت بسبب حربه على لبنان في ٢٠٠٦م.. عُرف غروسمان بمواقفه السياسة الحادة، وأَعْرَبَ عن معارضته الشديدة للحرب الإسرائيلية على لبنان عام ٢٠٠٦م، وأصدر بيانًا بالاشتراك مع عدَدٍ من الأدباء الإسرائيليين اعتبروا فيه أنها حربٌ غير مبرَّرة وغير أخلاقية، لكنَّ هناك سببًا آخرَ لكراهية غروسمان لحرب لبنان الأخيرة وهو أن ابنه «أورى» قتل في هذه الحرب على يد المقاومة اللبنانية. وهو الحادث الذي أصاب غروسمان باكتئابٍ شديد، مما دعا إلى وصفه على لسان الكاتب الإسرائيلي(بار فريدمان) بالمصاب بالشيزوفرينيا.

المشهد الرابع: مقالٌ بعنوان «عندما يهيمن الخوفُ على كل شيء» على صفحات أحد أعداد مجلة نيوزويك الصادرة بتاريخ ١٨-٣-١٩٩٦م..

المقال بتوقيع ديفيد غروسمان، تحَدَّثَ فيه عن الآثار التي تخلِّفها العملياتُ الفدائية التي يقوم بها الفلسطينيون في تل أبيب والقدس وغيرِهما.. الخوف ومناخ الموت المهيمنُ الشبيه بالمرض، الذي حاول (رابين) و(عرفات) علاجه، ولكن قنابل حماس تريد تخليدَه — حسب قول غروسمان. في هذا المقال الصغير يجسد غروسمان مشاعرَ الخوف المهيمن، قائلًا: «في هذا الصباح عندما استيقظتُ سألني ابني – البالغ من العمر أحدَ عشر عاماً -: هل انفجرت قنبلةٌ اليوم؟ ابني خائف مثل غالبية الإسرائيليين.. الناس يصرخون في الشوارع.. إلى متى تستمر هذه الحالُ؟! أي سلامٍ هذا؟!».

لقد استفز المقالُ الشاعرَ الفلسطيني محمد الأسعد، فرد على غروسمان تحت عنوان: السيد غروسمان: «انظر تحت كلمة عدالة» على غِرار رواية غروسمان «انظر تحت كلمة حب». يقول الأسعد: «إنني أتفهم هذا الشعورَ الذي يبعثه سؤالُ ابنِه البالغ أحد عشر عامًا عن قنبلة اليوم، ولكن السيد غروسمان يبدو محظوظًا – مقارَنةً بي؛ ذلك أنني أستيقظ في الصباح وكل صباح ولا أجد ابنتي البالغةَ من العمر أحد عشر عامًا (بالضبط في عمر ابنه) إلى جانبي لتسألَني، لسبب

بسيط وهو أنها بعيدةٌ عني آلافَ الأميال، فهي تحمل وثيقةَ سفر خاصةٍ باللاجئين لا تسمح لها بالسفر والانضمام إلى أخيها البالغِ من العمر أربعةَ عشر عامًا.. هل يَعرف السيد غروسمان أيَّ شتات وتمزق وموت فرضه قيامُ دولته إسرائيلَ على الفلسطينيين منذ أكثرَ من نصف قرن.. فنحن - الفلسطينيين - لا نستطيع حتى الوصولَ إلى قبور إخوتنا وآبائنا التي توزعت على مختلف البلاد.

ويُنهي محمد الأسعد مقالتَه المنشورة في مجلة العصور القاهرية المتوقفة، في العدد الخامس عشر، نوفمبر ٢٠٠٠م قائلًا: ليبحثِ السيد غروسمان عن معنى كلمة (عدالة) في أي معجم يشاء، وسيجد أنها تعني الشيءَ ذاتَه في كل اللغات: «إعطاء كل ذي حق حقه».

وَفْقَ هذا الحوار بين الأسعد وغروسمان، على صفحات الصحف يجدر بنا أن نشير - ولو بشكل سريع - إلى رؤية الأدباء الإسرائيليين للقضية الفلسطينية، فمنهم من تَوَافَق مع رؤية غروسمان ومنهم من عارضها، ومنهم من وقف في منطقة وُسطى بين المنزلتين.

في عـام ١٩٤٩م كانـت روايـة يزهـار سميلانـسكي المعْنْوَنـة «خربـة خزعـة» هـي أولى العلامـات الأدبيـة الإسرائيليـة المهمـة التـي تتنبـأ بالغضب الفلسطيني الذي جاء بعد ذلك بثمانية وثلاثين عامًا.

عام ١٩٧٠م نشر ستة وخمسون كاتبًا وأكاديميًّا إسرائيليًّا بيانًا طالبوا فيه بإقامة ما سُمِّي بإسرائيل الكاملة.

- الروائي الإسرائيلي(عاموس عوز) يشكو في روايته «صندوق أسود» من أنَّ الإسرائيليين تجرعوا من التاريخ - ويقصد الأسطورةَ - أكثرَ من اللازم، ويعتقد أن التسوية مع الفلسطينيين باتت وشيكةً - ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي.

- إبراهـام يوشـع الروائـي الإسرائـيلي يتعـرض في روايتـه «الغابـة» لاندلاع حريق في الغابة نتيجةَ حريق في بيوت الفلسطينيين المندثرة، يكشف الحريقُ عن أساس بيوت الفلسطينيين..

- الكاتب الإسرائيلي والروائي يزهار سميلانسكي يصف الحكومةَ الإسرائيلية في مطلع القرن الحادي والعشرين بأنها مصابةٌ بالعمى؛ لأنها لا تستطيع أن ترى أن ما يحدث في الأرض المحتلة هو ثورةُ شعب.. وهو ما وافقه عليه الروائي يوشعُ ليبوفيتش، والشاعرة

الإسرائيلية داليا رابيكوفيتش التي أكدت أن الفلسطينيين «سينجحون في نضالهم».

هذه المقولات والمواقف في الشارع الأدبي الإسرائيلي، تؤكد أن رواية ديفيد غروسمان الأخيرةَ لا تعزف منفردةً أو خارجَ السرب.. غير أن لغة غروسمان الحادة في روايته الأخيرة بسبب مقتل ابنه هي التي جعلت منها حالةً خاصة في الكشف عن التوتر والخوف، وكذلك الزيف الذي يهيمن على المجتمع الإسرائيلي من الداخل.

ثالثًا: أشار ما حدث إلى حالة من حالات الفصام في علاقة بعض المثقفين بالسلطة، فعلى الرغم من كونها التي تدعوهم جميعًا في مؤتمراتها، وتنشر لهم، أو هكذا يرغبون، في دورياتها وسلاسلها، فإنهم لا يتورعون عند أي مناسبة - سواء كانت تصلح أو لا تصلح - عن مهاجمتها، وبضراوة من لا يستفيد من سياساتها. وأقول: أي مناسبة تصلح أو لا تصلح؛ حيث إن بعضًا من الهجوم الذي شنه البعض عليّ كان سببه - ببساطة - أنني واحد من الكتاب الذين تنشر لهم مجلة الثقافة الجديدة التابعة للهيئة العامة لقصور الثقافة، تلك المجلة التي نشرت لي - دون طلب مني يعلم الله - أكثرَ من مرة في عامها الأخير،

فما كان من البعض إلا أن بدأ حملةَ التشكيك في نسبة الدراسة محل الخلاف لي، مؤكِّدًا - وبقليل من إعمال الفكر - أن الدراسة ونتيجة التاريخ العلمي للدكتور عبد الملك منصور لا بد ترجع له، ولا بد أنني سارقها، متمترِّسًا – ذلك البعضُ - بكثير من علمية زائفة لا تستند إلى شيء ذي بال، بقدر ما ترتدي لباسَ خلاف تافه يصطنعه البعضُ مع مؤسسة لا يرفض منها عطاءً إن هي أعطت، ولا يكفُّ عن الصراخ إن هي منعت.

أقول هذا، ويعلم الجميع أنني لا أتكالب على شيء في مكاتب مؤسسات الدولة، وأكتفي من الحياة بقدرة وهبني اللهُ إياها على العمل، ولكنني في الجانب الآخر لا أدَّعِي بطولةً زائفة تنتمي لمقاهي القاهرة أكثرَ مما تنتمي لقاعات العلم والمعرفة.

رابعًا: زيف النخبة الثقافية لا يختلف كثيرًا عن زيف النخبة السياسية، بل إن الزيفين يتسقان، وإليهما يعود السبب في ما وصلَتْ إليه الأمة العربية من تردٍّ مخزٍ على الصُّعُد كافة، ففي جانبٍ تريد النخبة السياسية ادعاءَ مكانة علمية تبرر بها وجودَها في سُدَّة الحكم، حتى لا يتأكد ما يشاع من أنها سرقت حاضرَ ومستقبل الأمة، ومن ناحية أخرى تريد

نخبة مثقفة ركوبَ أي موجة تحقق لها مكانةً لم تستطع الحصول عليها بإبداعٍ جُلُّه مزيف لا يرتكز - في حقيقة الحال - على شيء في روح صاحبه.. لقد التقت طبيعةُ نخبتين، ما كان لمجتمع مثل المجتمع العربي أن يسقط في هُوَّة سحيقة بزيفِ واحدة منهما فحسبُ بل إن زيف النخبتين معًا هو ما أدى إلى ما نحن فيه من خَيبة.

خامسًا: أشار بعضُ المتابعين لتفاصيل ما حدث إلى أن الدراسة محلَّ الكلام، هي عن رواية "ملاك الفرصة الأخيرة" للروائي المصري (سعيد نوح)، والحقيقة أن هذا الكلام فيه من المراوغة بقدر ما فيه من الخطأ. فالدراسة ليست مهمومةً بالرواية على سبيل التخصيص، بل إن فكرة من الأفكار الكثيرة التي تكتنز بها الروايةُ كانت محلَّ اهتمام لي. فكانت مدخلًا للدراسة المهمومة - أصلًا - بكيفية صناعة أساطير حول المدينة المقدسة في كتب التراث العربي، وهي مجموعة الأساطير التي تم اختراقُ التراث العربي، وبالتالي العقلية العربية عن طريقها.

ما يُهِمُّني الإشارةُ إليه أن الكلام عن رواية "ملاك الفرصة الأخيرة لا يتجاوز التمهيدَ للفكرة الرئيسية في الدراسة، ومع ذلك

ظل كثير من (الأصدقاء) يرددون أن الدراسة تتعاطى الرواية مَرْكَزًا لها، وهذا يعني - في نظري - أحد أمرين أو كليهما معًا:

إما أن البعض لم يقرأ الدراسةَ كلها واكتفى منها بمجرد الاستشراف من خارج، وعندما وطأت قدماه متنَ الدراسة رجع واكتفى بالإياب.

أو أن غرضًا في نفس (أصدقاء) لا أستطيع أن أتبينه تمامًا، يحاول الربطَ بين رواية سعيد نوح الجميلة التي تتجاوز القدس كخلاف سياسي، بدراسة هشام عبد العزيز، التي تتعرض للمدينة المقدسة وأساطيرِها التي بُنيت أساسًا - من وجهة نظري - على أهداف سياسية، فانْطَلَت على شعب عربي فقد بُوصلتَه الإنسانية بالأساس.

سادسًا: أشارت الروائيةُ هويدا صالح في مقالتها بصحيفة "اليوم السابع" إشارةً أسلوبية أظنها جاءت عرَضًا، كما أظن أنها لا تقصد التحليلَ كما فهمتُه وقتَها؛ حين أشارت إلى الجملة الأولى في الدراسة، التي أقول فيها: "لا يحتاج كاتب عربي إلى سبب يستفزه للكتابة عن القدس"، حيث أشارت إلى أن هذه الجملة تثبت نسبةَ الدراسة إلى عبد الملك منصور، حيث إن العبد الفقير الذي هو أنا، لو أنني كاتبُ الدراسة لقلت - مثلً -: "لا يحتاج كاتب مصري".

وقتَها سألت هويدا صالح: "ألا أستحق وصْفَ الكاتب العربي يا سيدتي؟! ثم، ألا ينسحب تحليلُك نفسُه على الدكتور منصور؟ أليست جنسيتُه المحلية يمنيًّا؟ أم أن أهل اليمن وحدهم هم من يَحِقُّ لهم أن يصفوا أنفسَهم بالعروبة لكن أهل مصر لا يستحقون هذا الوصف؟".

اعلم أنَّ هويدا صالح لا تقصد امتدادَ التحليل إلى نهايته كما مددتُ أنا التحليلَ، لكنها خُدِعت كبعض (الأصدقاء) بما وضعه عبد الملك منصور على موقعه من دراسات كشف بعضُ الجادِّين من القرَّاء الذين لا يجلسون على مقاهي القاهرة أن كثيرًا منها يعود لآخرين، مثل تلك الدراسة المُعَنْونة بـ"أثر السُّلْطَوِيَّة على المجتمع المدني"، التي تعود للكاتب اليساري المصري الكبير عبد الغفار شكر، وغيرِه من الكتاب. وبمناسبة الأستاذ عبد الغفار شكر، أذكر أن أحدَ (الأصدقاء) طلب من الشاعر محمود الحلواني: أن يخبرني أن أسكتَ عن الأمر برُمَّتِه، وعندما سألته: لماذا؟ قال: لأن أيَّ أحد يمكن أن يتهمَك بـ"البزنس" مع هذا الرجل، وأخبرتُه أن رأسي ليس به "بَطْحَة"، ثم استدركتُ: "وهل كان عبد الغفار شكر - أيضًا - "يُبَزْنِسُ" مع هذا الرجل؟!

فاجاب في بساطة غريبة: ومَنْ أدراك؟.. فقلت له: وفق هذا المنطق يمكن أن نقول إن هيكل وسيد حجاب وعمر الشريف وغيرهم من رموز مصر كلها كانوا "بيزنسون" مع هذا الرجل هم أيضًا".

سابعًا: لم أكن أظن أنني سأحتاج يومًا إلى الحديث عما أقْدرني الله على إنجازه، لكن هذا هو ما حدث للأسف، عند ردِّي على مقالة هويدا صالح، فقد قلتُ لها: "ماذا بوُسع باحث بقيت له على الأربعين خطوتان وأنجز معجمًا للعامية المصرية في القرن الحادي عشر الهجري تحقيقًا مشتركًا، كما أن إنجازه – وهو أنا – اتسع لعشرة كتب مطبوعة وتحت الطبع، فيها موسوعة كبيرةٌ «موسوعة نجيب محفوظ والسينما في الصحافة العربية ١٩٤٧ – ٢٠٠٠» كنت مديرَ التحرير التنفيذيَّ لها، ماذا يمكن أن أفعل غيرَ أن أبتغى العلمَ حتى لحظةٍ يقدرها ربى؟".

لكن لا يجب أن يؤخذ هذا الكلامُ باعتبار أن لي في البحث العلمي ما يمكن أن أباهِيَ به، فما زلت في طريق العلم أحبو، ما زلت تلميذًا بكل ما تعنيه الكلمةُ من معنًى، وغاية الأمر أني تلميذٌ شريف، وأرجو أن أستمرَّ على ذلك.

ثامنًا: وسط هذه الأحداث كلِّها تناثرت شهاداتٌ كثيرة، رفع كثيرٌ منها من قدري أكثرَ مما أستحق، خاصةً بعد أن حذف عبد الملك منصور الدراسةَ من موقعه، وهو ما مثل لي تحديًا حقيقيًّا.

تاسعًا: على الرغم من كل ما مثل لي ضِيقًا في هذه القضية، فإن كثيرًا من الأحداث كانت مثارَ احترام شديد بالنسبة لي، من ذلك الموقفُ المحترم الذي وقفه الناقدُ الدكتور أحمد مجاهد رئيس مجلس إدارة الهيئة العامة لقصور الثقافة، حيث وَصَلني دعمُه الشديدُ لي دون أن يسألني عن أي تفاصيل، وهو الموقف نفسُه الذي اتخذه رئيسُ تحرير مجلة الثقافة الجديدة المحترَمة الصديقُ طارق الطاهر الذي أثبت أن العمل الثقافي يحتاج لمخلصين نشطاءَ غيرِ مدَّعين كما يحتاج لمفكرين، إليه وإلى أعضاء هيئة التحرير معه وأهمُّهم الشاعر محمد أبو المجد والشاعر عمرو عبد الهادي الصديقُ العزيز الذي كنت أعتبر أن ما يَحدث قضيتُه هو وليست قضيتي أبدًا.. إليهم جميعًا أقدم خالصَ شكري واحترامي.

وكذلك الموقف المحترم الذي وقفه الصحفي المحترم وائل السمري، والصحفية سارة علام من جريدة "اليوم السابع"، حيث تعرضا لمساومات كثيرة ولكنهما أَبَيَا إلا أن يمارسا مهنتَهما النبيلةَ بأداءٍ لا يقل

نُبْلًا، وهو الموقف نفسُه الذي اتخذه مجموعةٌ ليست قليلةً من الأصدقاء ليس أوَّلَهم الدكتور أحمد موسى، ولا أستطيع أن أستثني منهم الروائي سعيد نوح أو الكاتبَ والقاصَّ سيد الوكيل.. أو الأصدقاء مسعود شومان ومحمود الحلواني وأحمد توفيق.. إلى الجميع أقول إن قضية المدينة المقدسة لا تحتاج منا لأكثرَ من التضامن الذي بدا واضحًا في قضيتي الصغيرة هذه التي لا تقارَن من حيث الأهميةُ بقضية العرب الكبرى (فِلَسطين).

أخيرًا: لا تعْدو الدراسةُ التي أثارت كلَّ هذا الجدلِ، سوى حجرٍ صغير في بناءٍ يحتاج مني ومن غيري إلى مواصلة وأمانة حتى نثبت أننا - ككُتَّاب عرب - لسنا أقلَّ - في أي حال - من ذاك الذي استطاع أن يحلم ذاتَ ليلة من ليالي القرن التاسع عشر الميلادي بوطن ليس له وجود، واستطاع حينما حلم به أن يخلقَه بعد نحو نصف قرن، على أرض هي لنا.. فهل نستطيع؟

هشام عبد العزيز

فيصل - مارس ٢٠١٠

مهـــــاد

لا يحتاج كاتبٌ عربي – في ظني – إلى سببٍ يستفزه للكتابة عن القدس، فكلَّ يوم، بل كلَّ ساعة وكل دقيقة، تطاردنا القنواتُ الفضائية والصحف السّيّارة بما يدفع أيَّ كاتب على وجه المعمورة دفعًا إلى الكتابة عن القدس، ناهِيكَ عن تأملها من حيث كونُها مدينةً استثنائية بين مدن الأرض، أو تأملِها كقضيةٍ إنسانيةٍ بالدرجة الأولى، وسياسية من حيث تناولُها في الوسائط الإعلامية المختلفة.

أقول لا يحتاج كاتب عربي إلى سبب يصدِّره دافعًا للكتابة عن القدس، غيرَ أن هذه الدراسة تحديدًا وقف وراءها سببان:

الأول: المحاولات المتكررة من جانب اليهود في الآونة الأخيرة للحفر تحت المسجد الأقصى بغرض الإضرار بالمبنى.

الثاني: رواية قرأتها مؤخَّرًا صَدرت في القاهرة.

أما عن السبب الأول؛ فإن اليهود يتعاملون مع المدينة وكأنّ الصراع السياسي الدائرَ بين العرب واليهود منذ ما يقرُب من قرن من الزمان ينبني على أُسس "أركيولوجية" وحسبُ، وهو ما تحاول

إسرائيل تصديرَه للعرب، فمن لا يملك أثرًا في المدينة فليس له أحقيةٌ فيها، ومن يُثبت أن له في تاريخ المدينة المقدسة أثرًا فهو المالك للمدينة المقدسة لا محالةَ!

يتجاهل اليهود أن الصراع الدائر حول المدينة المقدسة وحول فلسطين عامةً إنما هو صراعٌ "ميثولوجي" – إن صح لنا أن نستخدم هذا التعبير (صراع ميثولوجي) – حيث ينبني الصراع العربي الإسرائيلي في حقيقة الأمر على مجموعة من الأساطير والأساطير المضادّة، وهو – في ظني – ما أطال أمدَ القضية حتى اللحظة، وهو ما سنفصِّل فيه القول لاحقًا.

الثاني: قُلتُ رواية صدرت في القاهرة مؤخَّرًا بعنوان «ملاك الفرصة الأخيرة»[1] للروائي المصري (سعيد نوح)، وهو روائي من جيل الوسط.

تُبْحِر بنا الروايةُ في أجواءَ أسطورية حينما يستنفد المرءُ كلَّ السبل ويصل إلى أقصى قدرة له على الصمود حين ذلك يظهر ملاك الفرصة

---

[1] سعيد نوح: ملاك الفرصة الأخيرة، ط١، دار فكرة للنشر، القاهرة، ٢٠٠٨.

الأخيرة، ذلك الذي يُمِدنا بأسباب البقاء .. يظهر من مكان غير معروف .. ربما جاء – حسبما يقول الراوي – في صورة مطر يسقط في شهر أغسطس، أو ريحٍ عابرة للقارات، ربما تنكَّر في صورة قِط يَخمش بابك، أو عصفورٍ رقيق، لكنه أبدًا يأتي، يأتي حينما نكون محطَّمين ومرتعشي الفؤاد .. يأتي حينما نكون في أمَسّ الحاجة إليه .. هو – في الحقيقة لا في الخيال – الشخصُ الوحيد الذي ننتمي إليه .. حينما يأتي تحل فينا البصيرةُ النافذة فتوسع منظور الرؤية، ونرى أنفسنا للمرة الأولى الأكثرَ جمالاً، والأرحب في الأبعاد الروحية .. إنها الثقة بالنفس التي يقال عنها .. لا إنها الثقة في الروح .. روح ملاك الفرصة الأخيرة.

قد يتساءل البعض – ويكون محقًا –: وما عَلاقة ذلك بالمدينة المقدسة وفلسطين؟

تدور الرواية حول ذاك الملاك الذي يسرع لإنقاذ كثيرين في آخر لحظة يمكن أن يدركهم فيها أحدٌ .. [illegible] طَوالَ تاريخه الطويل – الذي هو تاريخ الإنسان من لَدُنْ آدمَ وحواء [illegible] – طوال هذا

التاريخ انشغل مرة .. تأخر عن أداء عمله .. لقد كان في انتظاره – منذ ساعة أو يَزيد – بـ(الخليل) أبٌ مكلوم في بيته وفي أسرته وفي وطنه كله

«عند ذلك تذكَّر ملاكُنا أنه لم يذهب إلى عمله.. دار في الأرض عدةَ دورات وهو يصرخ ويقول: لقد أضعتُ شخصًا ما في (الخليل)، يا لَمَأساةِ ما صنعتُ يا اللهُ! لقد أضعته تمامًا، وحطمت حياته وحياة أسرته. قطعتُ عليه طريق النجاة الوحيد للتغيير والإنصاف ككل الناجين الذين أُدرِكُهم في اللحظة الأخيرة»

أتدرون ما اسم هذا الرجل الذي كان ينتظر ملاك الفرصة الأخيرة في (الخليل)؟ اسمه: فلسطين.

الرواية ككل الروايات التي تعالج القضية الفلسطينية أو تعتمد على حكاياتها .. لكنها تختلف اختلافاتٍ نوعيةً في طبيعة التناول .. لقد حاول (سعيد نوح) صُنعَ أسطورة موازية لتلك التي تُحكَى عن فلسطين في كتب التفسير الديني سواءً اليهودي أو المسيحي أو الإسلامي.

فلسطين ضاعت عند (سعيد نوح) لأن ملاك الفرصة الأخيرة انشغل عن عمله .. تكاسل .. لأنه أحبَّ (خطية) – إحدى شخصيات الرواية – التي وظفها الشيطان لكي تَشغل الملاكَ حتى لا يدرك فلسطين ذاك الرجلَ الذي تشرد هو وأسرته .. وطَوال الرواية يذهب الراوي ويجيء ليسرُد بداياتِ هذه الخطيئة ومنتهاها.

هذه الأسطورة الروائية التي نسجها (سعيد نوح) هي ما دفعني إلى تأمل مجموعة الأساطير التي نُسجت حول المدينة المقدسة، غيرَ أنه يلزمني بدايةً التركيزُ على أمرين أراهما في غاية من الأهمية:

أولاً: الأسطورة حول المكان لا تُثبت أحقيةً أصلاً، فليس معنى تداوُل مجموعة من الحكايات -إنْ صحيحةً أو كاذبة- ونصدقها أنا وبنو جِلْدتي، ليس معنى هذا أن تجد هذه الحكاياتُ شرعيةً لوجودها على الأرض، يتساوى في ذلك اليهود والمسيحيون والمسلمون .. فالأساطير لا تؤسِّس حقًا، بل إن تأسيس الحقوق وشرعيتَها يعتمد أولاً وأخيرًا على لغة القوم وتاريخهم، ومدى انسجام خلاياهم مع ما يعيشون فيه من إقليمٍ .. ثقافيًا واجتماعيًا ودينيًا.

ثانيًا: الأسطورة ليس معناها الخرافةَ .. ليس معناها الكلامَ الذي لا يعتمد على منطق أو عقل .. الأسطورة ليس معناها كلام الغابرين ليست كلام الله، وليست كذلك عكسَ كلام الله .. الأسطورة هي مجموعة الأفكار – أيُّ أفكار – التي يعتنقها القوم – أيُّ قوم – والتي يمكن لأجلها تحمُّلُ المشاق، بل وملاقاةُ الموت بنفسٍ راضية.. الأسطورة بهذا المعنى تعيد ترتيبَ الواقع وَفق بنيتها وتحاول تطبيق هذا الترتيب على الأرض .. الأسطورة بهذا المعنى هي مَن أتى بيهودٍ مشتَّت من أوطانهم إلى أرض ليست لهم وطنًا.

وَفق هذا المعنى الذي رتبناه لمعنى الأسطورة؛ وقف (المتنبي) في الرواية المتداوَلة وهو هارب من فرسانٍ يطاردونه، فقال له غلامُه:

يا سيدي ألستَ القائلَ:

اَلْخَيْلُ وَالَّليْلُ وَالبَيْدَاءُ تَعرِفني   والسيفُ والرُّمح والقِرطاسُ والقلمُ؟

فوقف (المتنبي)، فقُتل.. أتدرون ما حدث؟ لقد صدّق (المتنبي) أسطورتَه لحظةً فدفع عمره جزاءَ هذا الإيمانِ العميق بالأسطورة. وإن كنا هنا نود التفريقَ بين الأسطورة الذاتية والأسطورة الجماعية.

وَفقَ هذا التحليل كذلك أَودُّ التأكيد على أن الأسطورة لا تُوصَف بالصدق أو بالكذب، بل إن من أهم سماتها أن يصدقها أناسٌ ويكذبها آخرون، وجُلُّ ما يمكن أن تَحظى به الأسطورة الإيمانَ أو الكفر، فإن وجدَتْ من يؤمن بها فهي أسطورة، وإن لم تجد من يؤمن بها فهي محض خرافةٍ .. فالأسطورة: تشْبِه الدينَ؛ تدفع المؤمنين بها إلى الشهادة .. تفرّق بين بني البشر، أما الخرافة: فهي للتسلية وغالبًا ما تجمع بين بني الإنسان.

وحتى لا يَربط أحدٌ بين الدين وبين الأسطورة أجدني مضطرًا إلى القول بأن الأديان هي أكثر الأشياء الداعمةِ لبناء الأسطورة، لكنها ليست الأسطورةَ .. بمعنًى أكثرَ دقةً تعتمد الأساطير على المَعارف الدينية، وتُؤِّل نصوصها حتى تكتسبَ الأسطورةُ شرعيةً أكثرَ رسوخًا .. الأديان: نصوصٌ مقدسة .. أما الأساطير: فتأويل للنصوص

المقدسة، ونصوصٌ بشرية أخرى، وأفكار، وحكايات، وقصص، وخرافات، ومصالحُ، وأجناس، وإبداعات .. وكل ما يمكن أن يَدعم تبريرَ وجودك أو وجودي أو وجوده في الحياة.

الأسطورة: هي مجموعة العلامات "السيميوطيقية" التي تظهر فجأة في خيالك عند ذِكر كلمة ذات صلة بموضوعٍ ما، ويتحكم في طبيعة مجموعة العلامات التي تلمع في ذهنك مجموعةُ القواعد الحاكمة لوجودنا .. الديانةُ- مثلاً - أحدُ هذه القواعد الهامة، التاريخ والجغرافيا، الحضارة، الثقافة واللغة، الهَمُّ العام. أما مجموعة الشروط الاجتماعية الخاصة بكل فرد -مثل درجة التعليم، والطبقة- فتكاد تكون معدومةَ الأثر في طبيعة العلامات التي يمتلئ بها الخيال عند ذكر كلمة ذات صلة.. ولْنأخذ - مثلاً - كلمة (القدس)؛ تلك الكلمة المشحونة بمجموعة غير قليلة من الشحنات الثقافية والسياسية الدالة، إنها بمجرد نطقها تَلمع في الذهن صورٌ أيقونية .. فهي الصراع العربي الإسرائيلي، هي بيت المقدس، المسجد الأقصى، قبة الصخرة، البراق، الإسراء والمعراج، هي الحق الضائع .. إن مجموعة من الصور

يتم استدعاؤها بمصاحبة هذه الكلمة ليست كلُّها طيبةً، فكما تتمثل أمامنا قبةُ الصخرة فإن (شارون) بصورته القميئة يلازمها... وكما نرى المسجد الأقصى فإن ذلك المعتوه الذي أحرقه عام ١٩٦٩م يظهر داخلَ هذا الكادر المقدس.. (القدس) تعني اللاجئين الذين شُرّدوا من وطنهم ووطن آبائهم وأجدادهم، وتعني "الترانسفير"، وتوطين بشر في وطن لا يعرفون عنه ولا عن جغرافيته شيئًا، اللهمَّ إلا ما سمعوه عن أسطورة لا يؤمن بها غيرُهم.

لكن هذه العلامات «السيميوطيقية» التي استدعتها الذهنيةُ العربية الإسلامية ليست بالضرورة هي نفسها العلامات التي تستدعيها الذهنيةُ اليهودية الصِّهْيَونية، فإذا كانت القدس وفلسطين تَعني لنا وطنًا على وشك الضياع، فإنها بالنسبة للصهيوني وطنٌ على وشك التحقق .. ليس هذا وحسبُ بل إن العلامة «السيميوطيقية» التي يتم استدعاؤها اليوم ليست هي نفسَها التي كانت تُستدعى أمسِ لنفس الموضوع .. فما تستدعيه (القدس) في عقلي يختلف كثيرًا عما تستدعيه في روح جدي؛ فإن كانت بالنسبة لي قضيةً، فهي بالنسبة

لجَدي رحلةُ حجّ مقدسة .. وإن كان الصهاينة بالنسبة لي مغتصبي حق وأرض، فإنهم بالنسبة لجَدي قاطعو طريق، وقاطعو عادة وعبادة في الآن ذاته.

ويخطئ من يظن أن أسطورة القدس تغذّيها الأديانُ، أو أنّ الأديان تتصارع. ومن هنا فقد نشأت قضية القدس؛ فالخلل واضحٌ جَليٌّ بين نصوص التوراة وجغرافية فلسطين، بل إنني أستطيع أن أقول – وبارتياحٍ – إن ثَمَّةَ اختراقًا صهيونيًّا لكتب التفسير الإسلامية ساهم في التأسيس للأسطورة الصهيونية حول القدس، وليس تفسيرُ (ابن كثير) أو بدايتُه ونهايته ببعيدَين عن أيدينا، وهو يروي قصة نبي الله (نوح)، الذي زرع كَرْمًا بعد الطوفان، وأثمر الكرمُ فأكل منه النبي (نوح) فتعرَّى فانكشفت عورته، فما كان من ابنه (حام) إلا أن يضحك على عورة أبيه، ويدعو أخويه (سام ويافث) ليشاهدا عورة الأب الثَّمِل، فيغطي الولدان الصالحان عورةَ أبيهما، ثم يحكيان له عما حدث من (حام) بعد أن أفاق (نوح) من سُكره، فتلقى (حام)

دعواتِ أبيه النبي عليه وعلى نسله، بأن يكونوا عبيدًا لأبناء (سام ويافث).

يحدد (ابن كثير) أسبابًا للنقل عن بني إسرائيل؛ منها الاعتبار، مستندًا إلى حديث النبي (محمد) الكريم، حين قال: {بلّغوا عني ولو آيةً، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرجَ}. فأين الاعتبارُ في هذه الرواية التوراتية المُغْرِضة؟!

مدينة مقدسة في/ بين ديانات ثلاث

بدأ الخلافُ أو الاختلاف حول القدس بدايةً من اسم المدينة حيث تُعَد من أكثر المدن أسماء؛ فهى القدس، وهى بيت المقدس، والمسجد الأقصى، ومسجد الأقصى على الإضافة، وهى بيت الله كما جاء في "المصباح المضيء"[2] وقيل: إن بيت الله ليس اسمَ المدينة بل معنى بيت المقدس، واسمُها كذلك صهيون، وإيليا، وإليا بدون الياء المتقدمة، واسمها أيضًا أورشليم.

ويحدثنا (المَقدسي) المؤرخ (٩٨٥م) عن المسجد الأقصى بما لا يَعني مكان بناء المسجد الحالي فحسبُ، وإنما كل ما يحيط بالفناء الكبير ووسطه قبة الصخرة، وكذلك القباب الأخرى الصغيرة، والمحاريب،

[2] محمد بن علي بن أحمد بن حديدة الأنصاري أبو عبد الله: المصباح المضيء في كتاب "النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعَجَمي"، تحقيق: محمد عظيم الدين، ط٢، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٥، ج ٢: ص٨٠

ورُدهات العُمُد، وهو ما يتفق مع فتوى مؤتمر مَجمَع البحوث الإسلامية في الأزهر الشريف، الذي عُقد في عام ١٩٦٨، والتي اعتَبرت أن المسجد الأقصى: هو المنطقة التي يضمها حاليًا بناءُ المسجد الأقصى وقبة الصخرة[٣].

وأصل التقديس _ كما حكى (القلقشندي) _ التطهير والمراد: المطهر من الأدناس، وقد ذكر (القلقشندي) في "صُبحه" وصفًا جغرافيًا للقدس، قال: طولها ست وخمسون درجةً وثلاثون دقيقةً، وعرضها إحدى وثلاثون درجة وخمسون دقيقةً، قال في "تقويم البُلدان": والقياس أن طولها سبع وخمسون درجة وثلاثون دقيقة، وعرضها ثلاثون درجة، وهى مبنية على جبل مستدير وعرةُ المسلك وبناؤها بالحجر والكلْس وغالب حجرها أسود وشِرب أهلها من ماء المطر المجتمع بصهاريج المسجد، وعينٍ تجرى إليها عن بُعد وكذلك

[3] د. عبد الحميد زايد: القدس الخالدة، ط٢، سلسلة تاريخ المصريين العدد ١٩٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠. ص: ١٨٢.

عين سلوان وليس ماؤها بكثير[4]، المتأمل لكلام (القلقشندي) يرى أنه يمتلك معرفة جغرافية يمكنه أن يقدمها فقط عند الحديث عن المدينة المقدسة لكنه لا يكتفي أبدًا بذلك؛ فالمدينة كما قَدّمتُ تملك جاذبيةً خاصّةً لصناعة الأساطير وتداولها، فنجده هو نفسَه بعد ذلك بقليل يذكر أن التقويم اختلف أكثرَ من مرة عند بنى إسرائيل وكان أحدُها خراب بيت المقدس[5].

ولأن المدينة - كما هو معروف - ترتبط بأواصرِ القُربى مع الديانات السماوية الثلاث؛ فقد كان طبيعيًا أن يتم تداوُل أخبار وآثار وحكايات تربط بين المدينة المقدسة بكل معالمها بالديانات الثلاث .. ومن تلك المعالم الهامّة داخلَ القدس: الصخرة .. وهي الصخرة المعروفة، التي بَنى عليها (عبد الملك بن مَرْوانَ) القبةَ؛ فهي الصخرة التي ربط فيها النبيُّ براقه ليلة الإسراء، وهي قبلة اليهود وإليها

[4] أحمد بن علي القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق: د. يوسف علي الطويل، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٧، ج ٤: ص١٠٤

[5] المرجع السابق: ج٦: ص٢٢٧

حجهم. ومن المغالطات التاريخية التي وقع فيها بعض المؤرخين في الغرب أنهم اعتبروا أن قبة الصخرة مسجدٌ يَتعبد فيه المسلمون، وسماها بعضهم - خطأً -: مسجدَ عُمر[6]. وفوق الصخرة أثرُ قدم، يقول البعض: إنه نتيجةُ صعود البراق في ليلة الإسراء والمعراج، وقال (السيوطي): إن الصليبيين كانوا يقولون أثناء احتلالهم للمدينة المقدسة: إنه أثر قدم المسيح ﷺ ،فيما يشير البعض من رواة الأخبار المسلمين أن هذا الأثر هو يد النبي محمدﷺ حينما صعد على الصخرة، فارتفعت الصخرة إجلالاً للنبي، فوضع يده عليها لئلا ترتفع.

وبالمدينة - كما هو معروف - كنيسة (القيامة) التي يحج إليها المسيحيون، كما أن بها (بيت لحم) وهو مزار هامٌّ جدًا عند المسيحيين.. كما أن بالقدس – حسبَ كثير من الحكايات المتداوَلة – قبر (حنة) أم مريم بنت عمران عليها السلام[7]. وبالمدينة كذلك قبة المعراج، وقبة الميزان، وقبة السلسلة، وقبة المحشر.

---

[6] د. عبد الحميد زايد: القدس الخالدة، ط٢، سلسلة تاريخ المصريين العدد ١٩٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠. ص: ١٨٢.

[7] أحمد بن علي القلقشندي: مرجع سابق، ج ٤: ص١٠٥

كل هذه المعالم وغيرها مِثل حائط المَبْكى أو البراق – مثلاً – يتنازعه أصحاب الديانات حول أحقية أيّها في نسبة هذا المَعلَم أو ذاك إليها، وقد وصل هذا النزاع إلى ما نعرفه جميعًا في الصراع العربي الإسرائيلي، وقد سبق هذا الصراعَ المسلَّح، صراعَ الحياة والموت صراعٌ أهدأ، وخاصةً فيما يتعلق بالبراق، والذي يسميه اليهود حائطَ المَبكى، والذي شاهدنا المرشَّح الديمقراطي لمنصب الرئيس الأمريكي يزوره مع مجموعة من حاخامات اليهود في سباقه نحو البيت الأبيض استرضاءً لليهود، هذا الحائط الذي يدِّعي اليهود أنه البقية الباقية من الهيكل السُّليماني القديم، أُثيرت حوله القضية الدولية التي لم يعُد أحد يتذكرها الآن؛ وذلك عام ١٩٣٠م، وشُكِّلت لجنةٌ دُوَلية للتحقيق، ووافق مجلس الأمم في ٥ مايو ١٩٣٠م على تأليفها، ووافق اليهود على صلاحية هذه اللجنة، وكان لهم ثلاثة وكلاء؛ هم: المحامي (مردخاي إلياش)، و(داود يلين) – مستوطن قديم، والحاخام (موشي بلاو)، وقد أصدرت اللجنة قرارَها لصالح المسلمين، وكان نصُّ القرار:

للمسلمين وحدهم تعود مِلكية "الحائط الغربي"، ولهم وحدهم الحق العَيني فيه؛ لكونه يؤلف جزءًا لا يتجزأ من ساحة الحرم الشريف، التي هي من أملاك الوقف، وللمسلمين أيضًا تعود ملكية "الرصيفِ" الكائن أمام الحائط وأمام المحلة المعروفة بحارة المغاربة المقابلة للحائط؛ لكونه موقوفًا حسب أحكام الشرع الإسلامي لجهات البر والخير"[8].

لهذه الأهمية التي يستشعرها الإنسان أيًا كان انتماؤه الديني مسلمًا كان أم مسيحيًا أم يهوديًا، لهذه الأهمية حكت كتب التراث العربي أن نبي الله (نوحَ) بعدما انحسر الطوفان أخذ قبر (آدمَ وحواءَ) ونقل رُفاتَهما إلى بيت المقدس، وكأن المُخيِّلةَ العربية أصرت على أن تَدفن أبا البشر وأمهم في المكان الذي شهد اختلاط الديانات السماوية الثلاث؛ ولهذا كان طبيعيًا أن نرصد في كتب التراث العربي رواياتٍ عن أول اختلاف بعد وفاة النبي محمد ﷺ؛ حيث اختلف الصحابة حول

[8] د. عبد الحميد زايد: القدس الخالدة، ط٢، سلسلة تاريخ المصريين العدد ١٩٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠. ص:١٨٩، ١٩٠.

المكان الذي يجب أن يُدفن فيه النبي؛ فقال بعضهم: ندفنه بمكة بلدِه الذي وُلد فيه، وقال آخرون: ندفنه بمسجده، وقال آخرون: ندفنه بالبقيع، وقال آخرون: بل ندفنه في بيت المقدس مدفنِ الأنبياء[9]. بل إن التراث العربي الإسلامي أصرَّ على الربط بين بيت المقدس بالأحداث ذات الأهمية الخاصة، سواءً عند السنَّة أو الشيعة، وهو ما تبدَّى – مثلاً – في ربطهم بين بيت المقدس وحادثة مقتل الإمام الحسين بن علي.. فقد قيل – حسْبَ صاحب "تاريخ الخلفاء" – "إنه لم يُقلب حجرٌ ببيت المقدس يومئذ إلا وُجِد تحته دم عَبيطٌ"[10].

طبيعي إذن بعد ذلك أن تشهد المدينة المقدسة خلافاتٍ شديدة وطويلةَ الأمد؛ فالديانات الثلاث تمتلك حقًا دينيًّا مقدّسًا في المدينة، وما دام الصراع يُدارُ على أُسسٍ دينية فلن ينتهي هذا الصراع أبدًا، وقد نجحت إسرائيل في جرنا إلى هذه المنطقة التي لا تُجدي نفعًا، فالأرض

---

[9] عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي: تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط١، مطبعة السعادة مصر، ١٣٧١هـ، ج ١: ص ٧٣

[10] المرجع السابق: ج١: ص٢٠٧

لا تنتسب لدين بل تنتسب لبشر قد يحملون دينًا وقد لا يَدينون بدين أصلاً.

ولِلحقِّ وجب أن نشير كذلك إلى سببٍ آخر وَجّه الصراع العربي الإسرائيلي وِجهةً دينية، أو أسس له – إن صح القولُ – وهو الخلافة العثمانية ووثائقُها الباقية التي عالجت قضيةَ الوجود اليهودي أو حتى المسيحي في الأراضي المقدسة من منظور ديني؛ فقد كان العثمانيون يتعاطَون مع قضية القدس باعتبارها مدينةً إسلامية وليس باعتبارها مدينةً عربية، وذلك قطعًا لأن (إسلامية) المدينة هو ما يؤسِّس لهم – كأتراك – حقًا فيها، أما (عروبتها) فلا تعطيهم الحق بمجرد التحدّث باسم المدينة وساكنيها، وها هو السلطان (عبد الحميد) يحدثنا في مذكراته عن أحد الخلافات بين بعض المسيحيين والمسلمين في القدس، فيقول: "لم يكن هناك أي مبرر لإراقة الدماء من الجانبين من أجل بيت المقدس، لقد سمح المسلمون للحجاج النصارى بزيارة الأماكن المقدسة في كل وقت، إن (مسجد عُمر) من المعابد الإسلامية المقدسة، أما (القدس) فهي المدينة المقدسة الثالثة بعد مكة والمدينة،

وهي محاطة من جميع جهاتها بالمسلمين، فلْيقلِ النصارى ما يشاءون، أما الأراضي المقدسة فنحن أصحابها"[11].

نحن – هنا في كلام السلطان (عبد الحميد) – تَعني المسلمين؛ لأنها الصفة الوحيدة التي تعطيه الحق في الدخول تحت (نحن).

---

[11] د. حميد بن عبد المجيد (السلطان عبد الحميد الثاني): مذكراتي السياسية، ط٥، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٦هـ، ج١: ص١٨٢

أساطـــير البدايـــة

ترتبط المدنُ في بداية وجودها ـ في كتب التراث العربي ـ ببَشرٍ بنَوها، وآخرين هدموها، وآخرين جدّدوها بعد هدمها، وبيت المقدس أو القُدس في ذلك مَثَلها مثلُ كثير من المدن.

ولكن مثلُها مثلُ المدن المقدسة .. بَنَتْها – لأنها تشتمل على أماكنَ مقدسةٍ – الملائكةُ؛ وذلك لأن بها بيتًا مُحرَّمًا – المسجدَ الأقصى.

تعالَوا نتتبَّع بعضَ ما جاء في كتب التراث العربي – على ما فيه من اختراقٍ إسرائيلي سنُفصِّل القولَ فيه لاحقًا – حيث يذكر (القلقشنديُّ) "أن أول مَن بنى بيت المَقْدس وأُرِيَ موضعَه يعقوبُ عليه السلام وقيل: داودُ والذى ذُكر في "تقويم البُلدان" أن الذى بناه سليمانُ بن داودَ عليه السلام"[12]، ولكن الروايات التي يرويها (ابنُ كثير) وفيها أحاديث

[12] أحمد بن علي القلقشندي: صبح الأعشى ، مرجع سابق، ج٤ : ص١٠٥

يعتمد عليها تؤكد أنّ أوّل من بنى بيت المقدس كان نبيَّ الله إبراهيمَ؛ فإنه "باني بيت المقدس، كما نطقت بذلك الكتبُ المُتَقدِّمة، وثبت في الصحيحين من حديث أبي ذَرٍّ قلت: يا رسولَ الله، أيُّ مسجد وُضِع أوّلًا؟ قال: المسجدُ الحرام، قلت : ثُمّ أيُّ؟ قال بيت المقدس، قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنةً... الحديث. فزعم ابنُ حِبّانَ أن بين سليمانَ الذي اعتقد أنه باني بيت المقدس - وإنما كان جدَّده بعد خرابه، وزَخْرَفه - وبين إبراهيمَ أربعين سنةً، وهذا مما أُنكِر على ابنِ حِبّانَ فإن المدة بينهما تَزيد على ألوف السنين"[13].

والحديث عن البدايات لا يَتَعَلَّقُ بالمسجد بشكلٍ عامٍّ هكذا، وإنما يَطال تفاصيلَ معالمه؛ فقد جاء في الأخبار أن داودَ جعل من الصخرة التي على الهضبة مذبحَه للرب، كما ورد في التَّلمود (توسفتا – يوما / ٨٤، ٨)

أن الله خلق الأرض ابتداءً من هذه الصخرة، وقال الحَبر (أليعازر البابلي): "إن الصخرة هي أصل خَلْق الأرض، وأن صِهْيَون هو سيرة العالم وهو كامل الجمال والبهاء". وجاء في أحد كتب

---

13 ابن كثير: التفسير، ج١، ص ٢٥٣

التصوف اليهودي (زوهر): "إن يعقوب نام على الصخرة وهو منطلقٌ من بيت أبيه إسحاقَ"[14].

ويعلق د. عبد الحميد زايد على هذه الرواية التَّلمودية قائلًا: "على أننا نعلم أنه نام في بيت إيل على بُعدٍ قريب من نابُلس، وهذا يدل على ما يهدف إليه اليهود من نقل قدسية إيل إلى أُورشليم"[15].

إن ما فعله اليهودُ من هذا النقل لقدسية مدينة إيل إلى مدينة أورشليم، والذي علق عليه (زكي)، ما هو إلا تضاربٌ في الأسطورة الجماعية لليهود، فهم غير موحَّدين لا على مستوى البشر ولا على مستوى الفكرة .. تحسَبهم جميعًا وقلوبُهم شتَّى.. وهذا التضارب في الأسطورة الحاكمة لِتوجهاتِهم الرُّوحية هو أولُ وأهمُّ عنصر من عناصر سقوط دولتهم المزعومة التي لا تقوم على أساسٍ من الحق،

[14] د. عبد الحميد زايد: القدس الخالدة، ط٢، سلسلة تاريخ المصريين العدد ١٩٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠. ص: ١٩٠.

[15] د. عبد الحميد زايد: القدس الخالدة، ط٢، سلسلة تاريخ المصريين العدد ١٩٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠. ص: ١٩٠

وإنما على قوة السلاح تَقوم، وبالسلاح يمكن أن تسترد الشعوبُ أوطانَها، ولكنها لا يمكن أبدًا أن تَسرِق بالسلاح وطنًا، كما يحاولون.

وإذا كان الاضطراب بين الروايات اليهودية – على اختلاف مصادرها – واضحًا، فإن الاختلاف بين الروايات اليهودية والواقعِ أشدُّ وضوحًا؛ فمن ذا الذي يستطيع أن يؤكد أيَّ صخرة يقصدها اليهودُ ويقدسونها؟!، ففي الوقت الذي يَذكر فيه التَّلمودُ أن الصخرة موضعَ التقديس كانت ترتفع عن مستوى سطح الأرض ثلاثَ أصابع، فإن الصخرة الحالية التي تعلوها القبةُ ترتفع في بعض نواحيها عن سطح الأرض مترًا على التقريب، ويبلغ محيطُها عشرةَ أمتار، "وفي أسفلها فجوة هي بقيةُ كهف عمقُه أكثر من متر ونصف، وتظهر الصخرة فوقه وكأنها معلَّقةٌ بين السماء والأرض، ويوجد عمود من خشب بين الصخرة وأرضية الكهف"[16]. ولا يمكن أن يَرُدَّ علينا مُجادلٌ بأن الزمن غيّر من جغرافيا المكان، لأن عوامل الزمن تُغيِّر. نَعَم...

---

[16] د. عبد الحميد زايد: القدس الخالدة، ط٢، سلسلة تاريخ المصريين العدد ١٩٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠. ص: ١٩٠.

ولكن بعكس ما حصل، بمعنى: أن يَقلّ الارتفاعُ بمرور الزمن وليس العكسَ.

وينقل لنا (عبد الحميد زايد) بعضًا من هذه الشطحات كما يسميها هو، أو الأساطيرِ المؤسَّسة كما نسميها نحن، نقلًا عن كتاب التصوف اليهودي "زوهر" ٢/ ٢٢٢ عما يسميه اليهود حَجرَ الأساس، يقول: "عند خَلقِ العالم ألقى الله حجرًا كريمًا من عرشه العظيم في الفضاء المظلم، فغطس فيه جزءٌ من هذا الحجر، وبرزت بقيتُه في السَّديم، وهذه البقية البارزة كنقطة في هذا الفضاء اللّانهائي بدأت تمتد من كل الاتجاهات عن يمين وشِمال، وأُرسيت الدنيا عليها، ولذلك يُسَمى هذا الحجرُ حجرَ الأساس"[17]. ويستطرد "زوهر" شارحًا أن تكوين الأرض حول حجر الأساس – حسبَ زعمه – كانت على ثلاثة تكوينات؛

الأول: منطقة مستديرة حول الحجر، نُورانية شفّافة.

[17] د. عبد الحميد زايد: القدس الخالدة، ط٢، سلسلة تاريخ المصريين العدد ١٩٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠. ص: ١٩١.

الثاني: منطقة حولها، مصنوعةٌ من مادة أقلَّ شفافيةً ولكنها أكثرُ رقةً من الأرض.

الثالث: مِنطقة معتِمة، يحيط بها المحيط الذي يدور حول العالم.

وهذه المناطق الثلاث ممثَّلةٌ في الهيكل الذي في أورشليم؛ فالمنطقة النُّورانية ... عبارة عن الهيكل ومدينة أورشليم، والثانية: هي الأرض المقدسة (فلسطين)، والثالثة المعتمة: هي بقية العالم، حيث تسكن الأمم غيرُ اليهودية من الكفار، أما المحيط الذي يدور بكل شيء فهو مملكة الجن التي تحيط بالعالم، "ولم تَرَ الدنيا قطُّ شيئًا أجملَ من تابوت العهد، وعندما أُدخِل تابوت العهد إلى الهيكل صاح بآية المزامير ١٣٢/ ١٤. هذا مُسْتَقَرِّي إلى الأبد، وهنا سوف أُقيم. وكان صوتُ الروح القُدُس يردِّد هذه الكلمات على مسامع إسرائيل"[١٨].

الرواية كغيرها من الروايات اليهودية سواءً من كتابهم المقدس الذي حرَّفوه أو من تَلْمودهم الذي يَنضَح حقدًا على الأمم والبُلدان

---

[18] د. عبد الحميد زايد: القدس الخالدة، ط٢، سلسلة تاريخ المصريين العدد ١٩٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠. ص: ١٩١.

والشعوب كلِّها وخاصةً شعب فلسطين، أو كتبِ التصوف التي كتبوها غيرَ ناسِين أهدافَهم التي جاءوا من أجلها إلى أوطاننا، ولا يتورعون من استخدام أيَّةِ وسيلة يرونها من أجل الاستيلاء النهائي على هذه الأرض التي يقولون – وهو الشيء الوحيد الذي صدَقوا فيه –: (إنها أرض مقدسة). أقولُ: لا يتورعون في سبيل السيطرة عليها من استخدام أية وسيلةٍ حتى الحبِّ، المهمُّ ألا يتركوا لنا أرضَنا، لا تتعجبْ نعم قد يستخدمون الحب، ولا أنسى هنا مقالة قرأتها للكاتب الإسرائيلي (جروسمان)، كانت عبارةً عن رسالة بَعَثَ بها للكاتب الفلسطيني (محمد الأسعد)، عُنوان المقالة/ الرسالة: "انظر تحت كلمة حب"، وفيها يتحدث (جروسمان) عن ضرورة السلام، وألّا يقوم الفلسطينيون بما أسماه العملياتِ الانتحاريةَ؛ لأن ابنه لا يستطيع الخروج إلى الشارع لِلَّعب خوفًا من هذه العمليات، وقد ردّ عليه الكاتب الفِلَسطيني برسالة، عنوانها: "السيد جروسمان انظر تحت كلمة عدالة"؛ شارحًا فيها كيف أنه – جروسمان – أكثرُ حظًّا منه لأنه يجلس مع ابنه ويحاول إزالة الخوف الذي يَعتريه كلَّ يوم، أما هو –

الأسعد – فهو لا يرى ولده منذ سنوات، كما أن ابنه وزوجته في بلد آخرَ غيرِ الذي يعيش فيه، فقبْل أن ننظر إلى كلمة حب، من الأجدر بنا أن ننظر إلى كلمة عدالة أوّلاً.

وفي ظني أن (جروسمان) لم يكن يبعث بالرسالة حقًا إلى كاتبنا العربي، فقد كان يستخدم اسمَه فحسبُ، ولكنه في الحقيقة كان يبعث بها إلى العالم أجمعَ، عَبْرَ (محمد الأسعد)، محاوَلةً منه لترسيخ أسطورتهم العصرية التي يُروِّجون لها منذ قرن تقريبًا، ألا وهي: أنهم شعب يريد السلام، وأن العرب والفلسطينيين لا يريدون غيرَ الحرب والدمار، هم يطلبون الحبَ، فيما نطلب نحن الحربَ، تصوَّرْ!

ولم يترك المسلمون الصخرةَ لليهود ينسجون حولها حكاياتِهم؛ فهي المكان الذي صعد منه رسول الله محمد ﷺ إلى السماء في ليلة الإسراء والمعراج، ولذلك ليس غريبًا أن تكون مقدسةً في الحضارة الإسلامية، وفي كتب التاريخ الإسلامي الذي يَرجع صلةَ العرب بالصخرة إلى عهد سيدنا (إبراهيم)، الذي أخذ ولده (إسماعيل) إلى هذه الصخرة لينفذ ما رآه من رؤيا ذبح ولده، ثم فداؤه. بل إن

(ناصري خِسْرو) المؤرخ والرَّحَّالة الفارسي الذي زار المدينة المقدسة عام ١٠٤٧م، يشير (خِسْرو) إلى أنه سمع أن سيدنا إبراهيم عليه السلام وولده – هكذا دون تحديد أيٍّ من أبنائه – سارا فوق الصخرة. ويستطرد (ناصري خِسْرو) قائلًا في إشارة دالة: "إن الناس يَفِدون إلى قبة الصخرة من كل فَجٍّ عميق"[19]. بل إنها منبع المياه والأنهار التي يشرب منها الناس في كل الأرض حسب رواية (الطبري) في تفسيره: "حدثني محمد بن عمرو قال حدثنا أبو عاصم عن شَبيبٍ عن عِكْرِمَةَ عن ابن عباس

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا (٢٧)﴾ (المرسلات: ٢٧)

قال: من أربعة أنهار: سَيْحان وجَيْحان والنيل والفُرات، وكلُّ ماء يشربه ابن آدم فهو من هذه الأنهار وهي تخرج من تحت صخرة من عند بيت المقدس"[20].

---

[19] د. عبد الحميد زايد: القدس الخالدة، ط٢، سلسلة تاريخ المصريين العدد ١٩٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠. ص: ١٩٩.

[20] مد بن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج١٢، ص ٣٨٦

وليس من شكٍّ في أن هذه القداسةَ هي ما دفعت (عبدَ الملك بنَ مرْوانَ) للاهتمام بهذه الصخرة المقدسة وهي كذلك ما جعلته يبني فوقها قبتَه الشهيرة، "وأحاطها بستائرَ وعيّن لها خُدَّامًا لرعايتها والعناية بها، وأن الناس قاموا بالطواف حولها كالطواف حول الكعبة الشريفة بمكةَ المكرمة، وأن تلك العادة قد استمرت طَوالَ أيام الأُمويين"[21]. ويعلق (زايد) على هذه الرواية بأنه لا يمكن أن يَتصورَ خليفةً من خلفاء المسلمين - خاصةً إذا كان قريبَ عهدٍ بالنبوة (تاسع خليفة بعد النبي ﷺ) – يُقْدِم على مثل هذا الفعل، ويَستطرد واصفًا كيفيةَ بناء قُبة الصخرة والتقنياتِ التي استُخدمت في بنائها وتزيينها، على أننا برغم ذلك لا ينبغي أن نأخذ أحكامَ (زايد) على عَواهنِها، فقد ذُكِرت محاولات للحج إلى بيت المقدس قبل هذه الحادثة بسنوات طويلة، وأول هذه الأحداث ذكرها صاحب "نصاب الاحتساب" قال: "رُوي في الأخبار أن قومًا خرجوا على هيئة الحاجِّ إلى زيارة بيت

---

[21] د. عبد الحميد زايد: القدس الخالدة، ط٢، سلسلة تاريخ المصريين العدد ١٩٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠. ص: ١٩٢.

المقدس فردهم عُمرُ ت وضربهم بالدِّرَّة، وقال لهم: أتريدون أن تجعلوا بيت المقدس كالمسجد الحرام؟!"[22].

أمّا ما حدَث أيامَ (عبد الملك بن مَرْوانَ)؛ فيرويه صاحبُ "مآثر الإنافة"؛ حيث كان (ابنُ الزُّبَير) يأخذ البيعةَ لنفسه على الناس في موسم الحج، فبنى عبدُ الملك قبةَ الصخرة ببيت المقدس، "وكان الناس يَحضرونها يومَ عرفة ويقفون عندها، فيقال إن ذلك سببُ التعريف ببيت المقدس ومساجد الأمصار"[23].

وتَروي لنا كتبُ التراث العربي بعضًا من الأخبار التي تُعَضِّد النظرَ إلى بيت المقدس باعتباره مزارَ حجٍّ في بعض الفترات من التاريخ الإسلامي، فقد جاء في الخبر – نقلاً عن "مُثير الغرام" للمَقْدِسِيّ – أنه كان على أيام (عبد الملك) يتدلَّى من وسط قبة الصخرة دُرة فريدة،

---

[22] عمر بن محمد بن عوض السنامي: نصاب الاحتساب، تحقيق: مريزن سعيد مريزن عسيري، ط١، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، بدون تاريخ، ج١، ص ٢٢٩.

[23] أحمد بن علي القلقشندي: مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، ط٢، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٥، ج١، ص ١٢٩.

وقرْنا كبشِ سيدِنا إبراهيمَ الذي ضحَّى به عن ولده، وتاجُ كِسْرَى. ولكن لما انتقلت الخلافةُ إلى العباسيين نُقِلت كل هذه المخلَّفات إلى الكعبة الشريفة"[24]. وفي رواية (ابن بطوطة) الرَّحَّالةِ الذي زار المدينةَ عام ١٣٥٥م، يحدثنا الرجلُ عن وجود دِرع من الحديد في قبة الصخرة، وأشار إلى أن الناس تقول: إنه درع حمزةَ بنِ عبد المطلب عمِّ الرسول ع. على أن هذه المقتنيات المقدسة التي رَوى خبرَها المَقدسيُّ، وابنُ بطوطة، لم يَرِد لها ذكرٌ في الرواية التي ذكرها (ناصري خِسْرو) بعد ذلك بحواليْ قرنَيْن من الزمان من زيارة (المَقدسي)، حيث يصف (خِسْرو) القبةَ قائلًا: "ويتدلى من وسط القبّة مصباحٌ من الفِضّة معلَّقٌ في سلسلة من الفضة، وكذلك توجد مصابيحُ أخرى معلَّقة في أنحاءَ متفرقةٍ من القبّة نُقِش عليها وزنُها، وهي جميعًا مُهداةٌ من الخليفة الفاطمي سلطانِ مصر"[25].

---

[24] د. عبد الحميد زايد: القدس الخالدة، ط٢، سلسلة تاريخ المصريين العدد ١٩٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠. ص: ١٩٣.

[25] د. عبد الحميد زايد: القدس الخالدة، ط٢، سلسلة تاريخ المصريين العدد ١٩٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠. ص: ١٩٩.

وأقربُ وصف للقبّة في كتب التراث العربي من الوضع الحالي؛ ما قام به (أبو الحسن عليُّ بن أبي بكر الهرويُّ) المتوفَّى في حلب عام ٦١١ هـ/ ١٢١٥م حيث زار المدينة المقدسة وهي تحت الاحتلال الصليبي وقبل أن يحررها (صلاحُ الدين الأيوبي)، واللّافتُ في وصف (الهروي) الذي نقله عنه (زايد)، ما ذكره عن الكهف الموجود تحت الصخرة، والذي سمّاه (الهَرَوي) كهفَ الأرواح؛ ناقلًا خبرًا بلا سَنَدٍ يقول: "فقد جاء في الخبر أن الله سيأتي بأرواح المؤمنين الصادقين إلى هذا المكان"[٢٦].

على أن (ابن خَلدون) يُطيل النظرَ بعضَ الشيء في أمر حكايات، أوقُلْ أساطيرِ البداية، فقد كانت بدايةُ بيت المقدس أيامَ الصابئة، وكانوا يقرِّبون إليه الزيت "يصبّونه على الصخرة، ثم دثر ذلك الهيكلُ واتخذها بنو إسرائيل حين ملَكوها قِبلةً لصلاتهم ... وذلك أن موسى لّما خرج ببني إسرائيل من مصر لتمليكهم بيتَ المقدس - كما وعد الله

[26]بد الحميد زايد: القدس الخالدة، ط٢، سلسلة تاريخ المصريين العدد ١٩٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠. ص: ٢٠١.

أباهم وأباه إسحاق مِن قبلِه، وأقاموا بأرض التِّيه، أمره الله باتخاذ قبة من خشب السنْط، عَيّن بالوحي مقدارَها وصفاتِها وهياكلها وتماثيلها، وأن يكون فيها التابوتُ ومائدةٌ بصِحافها ومنارةٌ بقناديلها، وأن يصنع مذبحًا للقربان، ووصَف ذلك كلَّه في التوراة أكملَ وصف، فصنع القبة ووضع فيها تابوتَ العهد؛ وهو التابوت الذي فيه الألواح المصنوعة عِوَضًا عن الألواح المنزَّلة بالكلمات العشر لما تكسّرت، ووضع المَذبَح عندها، وعَهِد اللهُ إلى موسى بأن يكون هارونُ صاحبَ القربان، ونصبوا تلك القبةَ بين خيامها في التِّيه يُصَلّون إليها ويتقربون في المذبح أمامها ويتعرضون للوحي عندها، ولمّا ملكوا الشام وبقيتْ تلك القبةُ قبلتَهم ووضعوها على الصخرة ببيت المقدس، وأراد داودُ عليه السلام بناءَ مسجده على الصخرة مكانَها فلم يَتمَّ له ذلك العهدُ، وعَهِد به الى ابنه سليمانَ فبناه لاربعِ سنينَ من ملكه ولخَمسِمائة سنة من وفاة موسى عليه السلام.[٢٧]

[27] عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي: المقدمة، ط٥، دار القلم، بيروت، ١٩٨٤، ج١: ص٣٤٥

لقد انقطعت الصلةُ بين موسى وسليمانَ في الواقع، أما في التاريخ فلم يصل بينهما سوى هذه الحكاياتِ التي تداولتها كتبُ التراث العربي مُردِّدةً كالببَّغاء خلف الحكايات والأساطير الإسرائيلية، والغريبُ أنَّ مَن يرويها هو المتصدِّي الأول للوهَم والتضليل الذى يعتري كثيرًا من رواياتنا التاريخية: (ابنُ خَلْدون)، كما سنرى بعدَ قليل.

المهمّ أنَّ كتب التراث التى روت أساطيرَ البداية روتها بكل تناقضاتها وها هو (القلقشندي) وهو يحدثنا عن إحدى الفرق اليهودية "السّامِرَة" يخبرنا أنهم يستقبلون طور نابُلس ويوجهون إليه موتاهم زاعمين أنه الذى كلَّم الله - موسى عليه السلام ، ويزعمون أن الله - أمر داود عليه السلام ببناء بيت المقدس عليه فخالف أمره.[28]

وكما اهتم المؤرخون بذكر بداية المدينة المقدسة بحشد مجموعة كبيرة من الحكايات حول هذه البداية، فكذلك اهتموا برصد بداية ما بهذه المدينة من معالمَ تكتسب قُدسيةً عن أهل هذه الطائفة أو تلك،

[28] أحمد بن علي القلقشندي: صبح الاعشى، مرجع سابق، ج١٣، ص٢٧١

ومن هذه المعالم أو المزارات ما يتصل بالديانة المسيحية، ومن ذلك ما رُوي عن (هِيلانة) أمّ الإمبراطور (قُسْطنطين) التى تنصرت وجاءت إلى القدس تبحث عن الخشبة التى صُلب عليها "السيد المسيح" فأخبرها القساوسة بأنه رُمي بخشبته على الأرض وأُلقي عليها القمامات والقاذورات، فاستخرجتِ الخشبة، وبنت مكان تلك القمامات كنيسةَ القمامة كأنها على قبره -بزعمهم- وأمرت برمى الزبل والقمامات على الصخرة حتى غطاها وخَفِي مكانُها جزاءً لما فعلوه بقبر المسيح، ثم بنَوا بإزاء القمامة بيت لحم وهو البيت الذى وُلد فيه عيسى عليه السلام[29].

ويَروي صاحب "المصباح المضيء": أن السيد المسيح رُفع إلى السماء متّسِقًا مع الرواية الإسلامية في ليلة القدر، ومن فوق بيت المقدس: "فلما كان بعد سبع ظهر لأُمّه، فقال لها: لم يصبني إلّا خيرٌ. وأمرها بأن تاتيَه بالحواريين ..."

---

[29] المرجع السابق، ج٤، ص١٠٥.

والجبلُ الذى ذكره (القُضاعي) ببيت المقدس يُعرَف الآن بجبل الطور، وهو مشرفٌ على المسجد الأقصى. يقول أهل الطور: إنه مصعد عيسى - عليه السلام - "غيرَ أنَّ الجديد في هذه الرواية أنها تضيف في نهايتها جملةً تقول: "وذلك على ما توارثوه بينهم من زمان السلطان (صلاح الدين) فاتح بيت المقدس ومنقذِه من أيدى الإفرنج."[30]، وهو ما يَعني أن هذه الحكاية تمّ تداوُلُها - إن لم يكن ابتداؤها - أثناء الصراع العربي الصليبي على بيت المقدس... أي أن هذه الأسطورة هي إحدى الأساطير التي تم توظيفها إبّانَ الصراع على بيت المقدس بين العرب والصليبيّن، وهو ما فطن له صاحبُ "المصباح المضيء" - فيما يبدو - حين حدد بداية تداوُل هذه الروايات؛ ولذلك ختم جملته بـ:" السلطان (صلاح الدين) فاتح بيت المقدس، ومنقذه من أيدي الإفرنج" فالله أعلم.

[30] محمد بن علي بن أحمد بن حديدة الأنصاري: مرجع سابق، ج٢: ص ٨٨



أساطير النهاية

كما بدأتِ الدنيا هناك عند قُبة الصخرة في المدينة المقدسة .. هناك أيضًا تنتهي .. وتتعدد الرواياتُ التي تَرصد ارتباطَ نهاية الكون ببيت المَقدس، ومن ذلك ما ذُكِر في تفسير الآية الكريمة ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ (القصص: ٨٥) من رواية ابن أبي حاتم – بسنده – عن نُعَيم القارئ أنه قال – في تفسير (المعاد) –: بأنه "بيت المقدس"، وهذا - والله أعلم - يرجع إلى قول من فَسَّر ذلك بيوم القيامة لأنَّ بيت المقدس هو أرض المَحْشر والمَنْشَر"[٣١].

ومن تلك الرواياتِ – كذلك – بعضُ الأحاديث النبوية، كالرواية التي نُسِبت لأبي سعيد الخُدْريّ عن النبي ﷺ والذي يقول:

[31] ابن كثير: التفسير، ج ٣، ص ٥٣٣.

{ يَخرج رجلٌ من أمتي يقول بسُنَّتي، يُنـزل اللهُ – عـز وجـل – لـه القطرَ مـن السماء، وتُخرِجِ الأرضُ بركتَها وتَمـلأ الأرضُ منه قسطًا وعدلاً كما ملئت جَوْرًا وظلمًا، يَعمل على هذه الأمة سبعَ سنين، ويَنزل على بيت المقدس }[٣٢].

ما يُهمُّنا في هذه الروايات ليس درجةَ صحتها من عدمها، فسواءً كان النبيُّ الكريم قد قال مثلَ هذا الحديث أم دُسَّ عليه فهو صحيح من الناحية الثقافية، حتى وإنْ كان موضوعًا من ناحية علم الحديث .. ما يُهم في هذا الحديث أنه – مَثَله مثلُ غيره من الروايات – يؤكد على حقيقة راسخةٍ بين المسلمين ألا وهي: أن العالم لن ينتهيَ إلا وبيت المَقدس إسلاميةٌ، بل ربما يكون ذلك علامةً من علامات قيام الساعة. وهو ما تؤكده مجموعةٌ كبيرة من الروايات التي تداولَتْها كتبُ التراث العربي كتلك التي أوردها صاحبُ "تاريخ الخلفاء" حول تفسير

[32] ابن خلدون: المقدمة، مرجع سابق، ج ١: ص ٣١٧ .مقدمة تاريخ ابن خلدون\ مجلد ١\ط٣

(ابن برجان) المفسر لأول سورة الروم ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ ﴾ (الروم: ١ - ٢) من أنَّ بيتَ المقدس يَبقى في يد الروم إلى سنة ثلاثٍ وثمانين وخمسمائة، ثم يُغلبون ويصير بعد ذلك دارَ إسلامٍ إلى آخر الدنيا .. وقد اعتمد المفسِّرُ في ذلك على حساب حروف الآية بالأرقام.

وليست آيةُ سورة الروم هي الآيةَ الوحيدة التي رُبِط تفسيرُها بين بيت المقدس ويوم القيامة؛ فقد أورد الطَبَريُّ في تفسيره للآية الكريمة ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٤١ ﴾ (ق: ٤١) أورد روايةً عن قتادةَ يقول: "بلغني أنه ينادي من الصخرة التي في بيت المقدس"[33].

ويستطرد الطبريُّ في رواية عن ابن بُرَيدةَ عن أبيه بريدةَ في تفسير آية سورة القمر ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ ﴾ (القمر: ٧)

قال: ملَكٌ قائمٌ على صخرة بيت المقدس واضعٌ أُصبُعيْه في أذنيه ينادي قال: قلتُ: بماذا ينادي؟ قال: يقول يا أيها الناسُ هَلُمُّوا إلى الحساب، قال: فيُقبِلون"[34].

---

33 محمد بن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج١١، ص٤٣٨

34 المرجع السابق نفسه

ومن الروايات الدالةِ والشهيرة في الآنِ ذاتِه والتي اتخذت مَنْحَى يكاد يكون شعبيًا في بعض الأحيان، ما رُوي عن نزول نبي الله عيسى ومُقاتلتِه للدجال، ففي حديث طويلٍ للنبي ورد في تفسير (ابن كثير)، يروي النبي ﷺ، عن فتنة الدجال وأنه يحاول دخولَ مكةَ والمدينة، ولكن الملائكة تمنعه، فتسأل أمُّ شَريك بنت أبي العكر رسول الله عن العرب، فقال لها النبي: {هم قليل وجُلُّهم يومئذٍ ببيت المقدس، وإمامُهم رجلٌ صالح، فبينما إمامُهم قد تقدم يصلي بهم الصبحَ إذ نزل عيسى بن مريم عليه السلام فرجع ذلك الإمام يمشي القَهْقَرى ليتقدمَ عيسى عليه السلام فيضع عيسى يده بين كتفيه، ثم يقول: تقدّمْ فصَلِّ؛ فإنها لك أُقيمت، فيصلي بهم إمامُهم، فإذا انصرف قال عيسى: افتحوا البابَ، فيُفتَح ووراءَه الدجال معه سبعون ألفَ يهوديٍّ كلُّهم ذو سيف مُحَلًّى وساجٍ، فإذا نظر إليه الدجالُ ذاب كما يذوب المِلحُ في الماء، وينطلق هاربًا فيقول عيسى: إن لي فيك ضربةً لم تَسبقني بها، فيدركه عند باب لُدٍّ الشرقي، فيقتلَه ويهزم الله اليهود. وقد وردت رواياتٌ عن النبي ﷺ بمعانٍ قريبة وروايات متعددة، عن عبد الله بن عُمر، وعن أبي هريرة، من طرق متعددة، أنَّ

رسول الله ﷺ قال: { لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهودَ فيقتلَهم المسلمون حتى يختبىءَ اليهوديُّ من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجرُ: يا مسلمُ يا عبدَ الله هذا يهوديٌّ خلفي فتعالَ فاقتلْه - إلا الغَرْقَدَ فإنه من شجر اليهود }[٣٥].

هكذا ارتبطت النهايةُ في الأدبيات التراثية سواءً منها الصحيح أو الموضوع- المهمّ أنه المترسِّخ في الوِجدان العربيِّ المسلم - ارتبطت النهايةُ بالقضاء على اليهود أولًا، وكأنَّ الصراعَ بين المسلمين واليهود صراعٌ حتميٌّ لا مفرَّ منه، والخطيرُ في أمر هذه الروايات أنها تعتمد الدينَ أو الأديانَ وَقودًا حقيقيًا يغذي الصراعَ العربي الإسرائيليَّ، ونحن - وإنْ كُنا لا نُغفل دور الدين في تمسك الإنسان بقضاياه- غيرَ أننا نود التأكيدَ على أننا - كمسلمين - نختلف عن اليهود، أو هكذا يجب أن نفعلَ، في طريقةِ استخدامِنا للدين، ففي الوقتِ الذي يستخدمه الصهاينةُ محرِّفين لتَوراتهم لتنطقَ بحقوقٍ ليست لهم، علينا أن نستوعبَ من مبادئنا الدينيةِ ما يَحُضُّ على الدفاع عن الأوطان، من

---

[35] ابن كثير: التفسير، ج١، ص٧٦٨.

دون أن ننجرفَ في رواياتٍ، إنْ صَدَقَ بعضُها، فإن أكثرَها قد انجرف إلى الهُوَّة السحيقة نفسِها، ولكن هذه الروايات على أيِّ الأحوال – الصحيحُ منها والمُفترَى – هي ما صنعتْ ما أُحب أن أسميَه: أساطيرَ المدينة المقدسة.

الاختراق الإسرائيلي لقصصنا الديني

بين الدينِ والإبداع مساحةٌ مشترَكة .. هي مشتركة في الهدف؛ حيث الوعيُ ببعضٍ من احتياجات الناس النفسية والجمالية في آنٍ. كذلك هي مشترَكةٌ في بعض الموضوعات التي يتناولُها كلاهما.

من هذه الموضوعاتِ: القَصصُ الدينيُّ، وقصص الأنبياء على وجهِ الخُصوص.. كم حكتْ الكتبُ المقدسة عن الأنبياء، وكم تناصَّ المبدعون مع هذه الحكايات على طول تاريخ الإبداع بالعربية.. حكى القرآنُ - مثلاً - عن الجنة والنار والحساب، وكذا فعلَها (أبو العلاء المَعَرِّي) في "رسالة الغفران"، حكى القرآن عن النبي نوح عليه السلام وأبنائه، وتناصَّ معه (أمل دُنْقُل)، حينما أصرَّ على القيام بمقابلة خاصة مع ابن نوح ذاك الابنِ المارق من دين أبيه.

أبـدًا لم يقـل (المعـري) إن مـا أخـبر عنـه، في رسـالته، هـو مـا سيحدث. كما لم يقـل (أمـل دنقـل) إن ابـن نـوح الـذي التقـاه هـو ذاك الابنُ المارق الذي صرّح النص القرآنيُّ نفسُه بأنه ليس من آل نوح.

في تـصوري، تَكمُـن عظمـةُ القـصص الـديني عامـةً في كـمٍّ الاستثارات الإبداعية التي يُثيرها في نفـوس متلقيـه، وهـو مـا رأينـا لـه أمثلـةً عديـدة سـواءً عـلى المـستوى الـشعبي أو عـلى مـستوى الإبـداع الخاص، لم يكن (المعـري) أولَهـم، ولـن يكـون (سـعيد نـوح) آخـرَهـم. فهل كان (المعري) سيكتب رسالتَه المعروفة لو لم يقرأ الـنص القـرآنيَّ؟ بالطبع لا، كما أن (أمل دنقل) لم يكن سيقابل ابـنَ نـوح مـا لم يكـن قـد تعرف عليه من خلال القصص القرآني الرائع.

هـي مـساحة صـافيةٌ تلـك التـي يـشترك فيهـا الـدينُ والإبـداع، مساحةٌ من الشد والجذب الجميلَين، لكنها أبدًا ليست مـساحةً لتبـادل الأدوار، هذه المساحة الصافية لا يشوِّش عليها سـوى دخـول التـاريخ طرفًا؛ فإذا ما تصورنا أنّ الدينَ يقوم بدور التـاريخ، أو أنّ الإبـداع هـو

الآخر يقوم بهذا الدَّور، عندها فحسبُ يفقد الإبداعُ سمةً من أهم سماته؛ وهي التعبيرُ الجمالي.

لا يتصور أحدٌ أننا ننفي المعارفَ التاريخية التي تقدمها النصوصُ الدينية، غيرَ أنها يجب أن تكون مشروطةً بأنها معارفُ تاريخية وردت في نصوص دينية، كما أن المعارف التاريخية الواردةَ في نصوص إبداعية مشروطةٌ هي الأخرى بأنها معارفُ تاريخية وردت في نصوص إبداعية.

إن الأمثلة التي تُدلل على ما نقول فيما يتعلق بموضوعِ بحثنا كثيرةٌ؛ فمثلاً قصة نبي الله يوسف، لم تقل القصة القرآنية أن يوسف مَلَكَ رِقابَ المصرين واشتراهم لِقاءَ إطعامهم، ولم يقل النص القرآني قطُّ أن امرأة العزيز تزوجت يوسف وأنه أحبها، وأنَّ أولادًا اثني عشرَ كانوا نِتاجَ هذا الحب وهذا الزواجِ .. لم نقرأ شعرًا قالته امرأةُ العزيز في يوسفَ بين طيات المصحف الشريف .. لا.. لم تبنِ له قصرًا، ولم تُحضر المِعماريين والرسامين ليرسموا صورةً لها هي ويوسفَ متعانقَين .. لم يقل القرآن الكريم إن يوسفَ هو الآخر جرى وراءَ امرأة العزيز لكي

يُقبِّلَها، فجرت منه، فقدَّ قميصَها من دُبُر كما قدَّت قميصَه من دبر، لكن هذا هو ما صرحت به إحدى النسخ الخطية التي روت قصةَ نبي الله يوسف عليه السلام [36]؛ والقصة كما وردت بالمخطوط تؤكد الاختراقَ الإسرائيلي الواضحَ فيما يتعلق بعلاقة المصريين بالنبي يوسف، يقول الراوي:

"وفرَغ القوتُ من بيوت الناس، حتى ما بقي في بيوت مصر ولا نواحيها شيءٌ من طعام .. فأصبح الناسُ متحيرين، وأحاط بهم الضررُ، وتغيرت ألوانُهم، وشاهدوا أمرًا لا يُطيقونه، ففتح يوسفُ خزائنَه، وجعل عليها الأمناءَ، ونادى منادٍ: "من يشترِ الطعامَ فليأتِ بيتَ يوسف الصِّدِّيق".

قال: فأتت الناسُ إليه، فاشترَوا أولَ عامٍ بما عندهم، فاشترَوا منه بالذهب والفضة، حتى إنه لم يَبقَ من أهل مصر ولا درهمٌ واحد إلا صار في خزائن يوسف.

[36] انظر فهرس المخطوطات المحفوظة بدار الكتب والوثائق المصرية، حرف القاف، قصة يوسف الصديق.

قال: وباعهم السنةَ الثانية بما في أيديهم من الحُليِّ والجواهر، حتى لم يَبق في مصر ولا نواحيها حُليٌّ ولا جواهر، ثم باعهم في السنة الثالثة بالدواب والمواشي، حتى صار الكلُّ إليه.

قال: ثم باعهم في السنة الرابعة بالدور والحوانيت.

قال: ثم باعهم في السنة الخامسة بالضياع حتى احتوى يوسفُ عليه السلام على أملاكهم جميعًا.

قال: ثم باعهم في السنة السادسة بنسائهم وأولادهم حتى صار الكلُّ عبيدًا له.

قال: ثم باعهم في السنة السابعة برقابهم وأقروا له جميعًا بالرق والعبودية، حتى لم يَبق بمصر حرٌّ ولا حرة إلا صار الجميعُ مماليكَ يوسف عليه السلام.

قال: كعبُ الأحبار رحمه الله فملك يوسفُ عليه السلام رقابَ أهل مصر جميعًا وديارَهم وأولادَهم، وأتى بعد ذلك عامٌ فيه شدةٌ وجُوعٌ، حتى

إن الرجالَ كانوا يأتون إلى يوسفﷺ ويقولون له: بِعناك أنفسَنا بمِلء بطوننا"[37].

إن الاختراق الإسرائيليَّ واضحٌ في هذه القصة وضوحَ الشمس، وهو ما يترجم مشاعرَ الكراهية من عبيد المصريين القُدامى؛ وهو اختراق محكوم بمآربَ سياسيةٍ كما هو واضح، اختراقٌ حوّل موظفًا عامًا في الإدارة المصرية إلى مالكٍ لكل رقاب المصريين الفراعنة.

إن هذا الانحراف القصصي نفسَه هو الذي رسم مشاهدَ من الغرام بين نبي الله يوسف وامرأةِ العزيز، إلى الحد الذي جعل يوسفَ يَقُدّ قميصَ امرأة العزيز كما قَدّت هي قميصَه؛ يقول الراوي:

"فلما دخل عليها يوسفُ نظر إلى ما كساها الله - تعالى - من الحسن والجمال، وما ألبسها من لباس أهل الجنة، فمد يوسفُ يده إليها ومال قلبُه لها ميلًا عظيمًا، فهربت منه ودخلت مُخدَعًا لها، وغلّقت

[37] مؤلف مجهول: قصة يوسف الصديق، مخطوطات دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ص ٢٩ من المخطوط.

الأبوابَ بينها وبينه، ويوسف يجري خلفَها، حتى مسكها وجذبها من قميصها مِن خلفها.

قال: فأوحى الله - تعالى - إليه: يا يوسفُ؛ قَدٌّ قميص بقميص، ومحبةٌ بمحبة، وطلبٌ بطلب، وهرب بهرب..

قال: فأكرمها يوسفُ غايةَ الإكرام"[٣٨].

[38] مؤلف مجهول: قصة يوسف الصديق،مخطوطات دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ص ٣٥ من المخطوط.

خـــاتمـــة وتـــوصيـــات

يتضح من هذه الجولة القصيرة بين دهاليز الأساطير التي تعاطت المدينة المقدسة/ القدس الشريف موضوعًا لها، يتضح أن:

- الصراع العربي الإسرائيلي هو في أساسه صراعُ مجموعةٍ من الأساطير الجماعية التي يؤمن بها أطرافُ الصراع، وهذا هو ما أراده الصهاينةُ ضبطًا، أن ندخل جميعًا في صراعٍ حول مدى صدقِ أو كذبِ أيٍّ من الأساطير الداعمة لحق أي مِنّا في الأرض المقدسة، هذا مع الوضع في الاعتبار أنَّ الأساطيرَ مَثلها مثلُ الديانات ليس بمستطاعٍ وسمُ أيِّها بالصدق أو بالكذب، وهو ما طَمَحت إليه الرؤيةُ الإسرائيلية منذ البداية وحتى الآنَ، حتى تبتعد بالصراع عن الحقوق الجغرافية في المكان، حقوقِ من يملكون الأرضَ منذ آلاف بل ملايين السنينَ بغَضِّ النظر عن الأسطورة التي يحاولون ترويجَها، أو

العقيدةِ التي يؤمنون بها؛ هذا إن كان عندهم ما يؤمنون به أصلًا.

- كما اتضح من البحث - وإن كان يحتاج لتطويرٍ أكثرَ - مدى الاختراق المتعمَّد منذ القِدم لتراثنا العربي، من قِبَل الإسرائيليين، بهدف إثبات أحقيتهم في أرضنا العربية، وهو ما يجب التنبيهُ إليه من آنٍ لأخرَ، من الدرس الواعي لكتب تراثنا العربي المخترَق بالإسرائيليات طولًا وعرضًا، ولا يجب أن يمنعنا احترامُنا وإجلالنا لهذ المفكّر أو ذاك من أخذِه بعين النقد، فتصويبُ رؤية أجيالنا القادمة تُجاه ما يقرؤنه من كتب التراث خاصةً فيما يتصل بحقوقنا العربية المشروعة في أرضنا المغتصَبة من قِبَل العدو الصهيوني، هذا التصويبُ مطلبٌ أول وأساسيٌّ في معركتنا الراهنة.
- وضح لنا من البحث غفلةُ كُتّابِنا في العصر الحديث منذ بداية الصراع العربي الإسرائيلي وراءَ المقولات الصهيونية من أن لهم حقًا تاريخيًا أم لا، وظني أنَّ اليهود لم يكن هدفُهم إثباتَ

حق تاريخي؛ سواءً كان ثقافيًا أو دينيًا، في المدينة المقدسة، بل كان هدفُهم الرئيسُ مجردَ فتح باب النقاش والجدال حول هذه النقطة، وعدم إغلاقه، حتى يجريَ الكُتَّابُ والمفكرون العرب وراء الحقوق الدينية، موجودةً أو غيرَ موجودة، ويتركون العمود الأساسي للخلاف، وهو أيَّ لغة تتكلم هذه الأرضُ؟ أيُّ جنسية تسكن هذه الأرضُ؟ أيُّ لون وأي عِرْق بشري يسكن هذه الأرضَ ويملكها أبًا عن جَدّ ...إلى ملايين الجدود؟

هكذا نجح الصهاينةُ في جَرِّنا إلى المنطقة التي لا تحتمل التصديقَ أو التكذيبَ كالجمل الإنشائية، فغفلنا عن الجمل الخبرية الواضحة التي يمكن أن نشير فيها للصدق والكذب بلا أيَّة صعوبة.

وعليه، ينبغي أن ندرك من الآن فصاعدًا، أن الخلاف لا يمكن أن يؤتي ثمارَه بالنسبة لنا - العربَ - إلا إذا أدرناه كعرب أولاً وأخيرًا، بعيدًا عن أيِّ ديانات، وبعيدًا عن كل الأساطير، بمعنى أن نُبْرِزَ - مثلًا

- تلك الأسرَ التي تخدم كنيسة القيامة، من يملك مفتاحَ المدينة المقدسة، من يحمل مفتاحَ الكنائس والمساجد منذ سنينَ ليس لها عَدٌّ؟ بِغَضِّ النظر عن دياناتهم، بل بالنظر إلى أجناسهم، لغتهم العربية ... إلخ.

المصــادرُ والمراجـــعُ

١ - أحمد بن علي القَلْقَشندي: صُبْح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق: د. يوسف علي الطويل، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٧، ج ٤: ص١٠٤

٢ - أحمد بن علي القلقشندي: مآثر الإنافة في مَعالم الخلافة، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، ط٢، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ١٩٨٥.

٣ - سعيد نوح: ملاك الفرصة الأخيرة، ط١، دار فكرة للنشر، القاهرة، ٢٠٠٨.

٤ - عبد الحميد زايد: القدس الخالدة، ط٢، سلسلة تاريخ المصريين العدد ١٩٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠.

٥ - عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي: تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط١، مطبعة السعادة مصر، ١٣٧١هـ.

٦ - عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي: المقدمة، ط٥، دار القلم، بيروت، ١٩٨٤.

٧- عمر بن محمد بن عوض السنامي: نصاب الاحتساب، تحقيق: مريزن سعيد مريزن عسيري، ط١، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، بدون تاريخ.
٨- حمد بن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن.
٩- محمد بن علي بن أحمد بن حديدة الأنصاري أبو عبد الله: المصباح المضيء في كتاب النبي الأمي ورسلِه إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي، تحقيق: محمد عظيم الدين، ط٢، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٥.
١٠- مؤلف مجهول: قصة يوسف الصدِّيق، فهرس المخطوطات المحفوظة بدار الكتب والوثائق المصرية، حرف القاف.

المحتـــــوى

المؤلـف

الاســـم: هشام عبد العزيز

الخبــرات

- سكرتير تحرير مجلة العصور الجديدة، دار العصور للنشر، القاهرة، ٢٠٠٠.
- سكرتير تحرير مجلة الفن المعاصر، أكاديمية الفنون، القاهرة، ٢٠٠١.
- مسؤول نشر بوحدة الإصدارات، أكاديمية الفنون، منذ ٢٠٠٢ وحتى الآن.
- كاتب بمجلة العدالة، لجنة الاتصال بنقابة المحامين المصرية، القاهرة، ٢٠٠٦.
- سكرتير تحرير مركز المعلومات والتوثيق ودعم اتخاذ القرار. أكاديمية الفنون، ٢٠٠٥/ ٢٠٠٦.
- محرر بالقسم الثقافي بجريدة القبس الكويتية (مكتب القاهرة) ٢٠٠٧/ ٢٠٠٨.

المؤتمرات العلمية

- المؤتمر الدولي الثاني للمأثورات الشعبية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠١.
- مؤتمر أدباء مصر، الهيئة المصرية لقصور الثقافة، بور سعيد، ٢٠٠٥.
- مؤتمر أدباء القناة وسيناء، محافظة السويس، ٢٠٠٧.
- مؤتمر السير الشعبية العربية بين الشفاهية والتدوين والتواصل.. كلية الآداب جامعة بني سويف. في الفترة من ١٤ وحتى ١٦ مارس ٢٠١٠.

المشاركة في المشروعات العلمية

- مشروع جمع وتوثيق نصوص السيرة الهلالية، الجمعية المصرية للمأثورات الشعبية، بالتعاون مع مؤسسة اليونسكو، ٢٠٠٥.

الأعمال المنشورة

أولا: الكتـــــب:

١ - تاريخ مكة (جزآن)، تحقيق بالاشتراك، دار مصطفى نزار الباز للنشر، مكة المكرمة، ١٩٩٦.

٢ - شفاء الغرام (جزآن)، تحقيق بالاشتراك، دار مصطفى نزار الباز للنشر، مكة المكرمة، ١٩٩٦.

٣- الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، تحقيق، دار مصطفى نزار الباز للنشر، مكة المكرمة، ١٩٩٦.

٤ - ألف ليلة وليلة بالعامية المصرية، تحقيق بالاشتراك، دار الخيال للنشر، القاهرة، ١٩٩٧.

٥ - كتاب النساء، تحقيق بالاشتراك، دار الخيال، القاهرة، ١٩٩٨.

٦ - الغناء والرقص في الإسلام: دراسة وتحقيق، دار الخيال للنشر، القاهرة، ٢٠٠٠.

٧- المقتضب فيما وافق لغةَ أهل مصر من لغة العرب: تحقيق بالاشتراك، أكاديمية الفنون، القاهرة، ٢٠٠٦.

٨- موسوعة نجيب محفوظ والسينما في الصحافة العربية، مدير التحرير التنفيذي، أكاديمية الفنون، ٢٠٠٦.

ثانيًا: أبحاث ودراسات:

١ - تكفير التكفير، مجلة القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مارس ١٩٩٥. مجلة أحداث مغربية، الدار البيضاء، المغرب، أكتوبر، ٢٠٠٣

٢- المقتضب (مختارات من العامية المصرية في القرن الحادي عشر الهجري)، مجلة القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، يونيه، ١٩٩٦.

٣- فتنة اليهود بين المسلمين والمسيحيين، مجلة العصور الجديدة، دار العصور للنشر، القاهرة، ٢٠٠٠.

٤- الشذوذ...، مجلة العصور الجديدة، دار العصور للنشر، القاهرة، ٢٠٠٠.

٥- هجرة اللغة، مجلة الإذاعة والتليفزيون، القاهرة، يونيه، ٢٠٠٥.

٦- الحق في الإضراب، مجلة العدالة، لجنة الاتصال بنقابة المحامين المصرية، القاهرة، فبراير، ٢٠٠٦.

٧- الحق في المتعة، مجلة العدالة، لجنة الاتصال بنقابة المحامين المصرية، القاهرة، فبراير، ٢٠٠٦.
٨- بين المتن والهامش.. قصص الأنبياء كما حكاها الناس، كتاب الأبحاث، مؤتمر أدباء مصر، الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٦.
٩- ثورات المصريين.. تحقيق لمخطوط: "خروج المصريين على الخلفاء والسلاطين" تأليف مصطفى بن محمد نجيب. جريدة الغد. ديسمبر ٢٠٠٦.
١٠- محمد رجب النجار ومعاناة التحقيق، مجلة الفنون الشعبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة. ديسمبر ٢٠٠٦.
١١- أساطير المدينة المقدسة، مجلة الثقافة الجديدة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، عدد مايو ٢٠٠٩.
١٢- قصص الأنبياء كما حكاها الناس.. آدم وبنوه، مجلة الثقافة الجديدة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، أعداد يونيه ويوليو وأغسطس ٢٠٠٩.

١٣- السير الشعبية.. قانون البناء والتفكك. كتاب الأبحاث، مؤتمر السير الشعبية العربية بين الشفاهية والتدوين والتواصل.. كلية الآداب جامعة بني سويف. مارس ٢٠١٠.

كتب تحت الطبع

١- صحف مصادرة في مصر حتى ١٩٥٢. المجلس الأعلى للثقافة.

٢- خروج المصريين على الخلفاء والسلاطين (دراسة وتحقيق). دار صرح للنشر والتوزيع.

كتب قَيد البحث

١- موسوعة أسواق مصر.

٢- معجم كلام أهل مصر منذ القرن العاشر الهجري.

٣- سواطع الإلهام (تحقيق).